الغـــيب والشهـــــادة

كما تحدَّث القرآن الكريم

الغـــيب والشهـــادة

كما تحدَّث القرآن الكريم

تأليف

أ . د. محمد السيد الجليند

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة الإسلامية

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

الناشـــر

الدار المصرية السعودية

للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

لصاحبها العقيد شيرين ثابت

دار الكتب المصرية

فـهـرسـة أثـنـاء الـنـشـر

إعداد إدارة الشئون الفنية

الجليند، محمد السيد

الغيب والشهادة كما تحدث القرآن الكريم / تـأليف محمد الـسيد الجليند.

. - ط 01 - القاهرة: الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع ، (2009)

152 ص ؛ 24 سم

رقم الإيداع : 20477 / 2009

تـــدمـــــك : 9 - 007 - 472 - 977 - 978

1- الغيبيات فى القرآن 2- الشهادة

أ- العنوان

229.4243

النـاشــــر

الدار المصرية السعودية

للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة

لصاحبها العقيد شيرين ثابت

E-Mail: elmsria.alsodia@hotmail.co.uk

www.qubaaalhadetha.com

16أ عمارات العبور ـ شارع صلاح ســالــم

الدور الثالث ـ مدينة نصـــر ـ القاهـــرة

تليفاكس : 02/22621365 تليفون : 02/24025777

محمـــول : 002/0123140315 - 002/0123171722

حقوق الطبع محفوظة للناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإنسان وعالم الشهادة قراءة توحيدية

لقد احتل الحديث عن عالم الشهادة وعن الإنسان وقضاياه الاجتماعية مكانة كبيرة فى تراثنا الدينى. فكان الحديث عن الكون ونشأته، والسماء والأرض والرياح والنبات والحشرات ووظائفها الوجودية كما كان الحديث عن الإنسان ونشأته فى بطن أمه جنينًا، ثم طفلاً وشابًا، ثم شيخًا هرمًا.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ (المؤمنون: 12-17).

وكان الحديث عنه فى مرحلة وجودية ثانية هى الوجود الأخروى، وكان الاهتمام الأكبر فى مرحلته الحياتية بين الوجودين المادى الدنيوى والآخر الغيبى، وكان الحديث أكثر وأكثر عن علاقته بالكون وما فيه من عناصر الكون الطبيعية ومن فيه من أفراد المجتمع . وكانت قيمة الإنسان فى كل هذه المناسبات هى الأعلى والأرفع والأكرم من قيمة كل ما عداه من سائر الكائنات الأخرى انطلاقا من تكريم الخالق له فى صور متعددة ،منها أن الخالق قرر هذه الحقيقة فى صيغة الإعلان عنها كمبدأ وجودى عام ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء:70).

ومنها أن الخالق جعل كل ما فى العالم مسخراً فيه لخدمة الإنسان

وخاضعاً لإرادة الإنسان فيه وإرادته منه جاء ذلك فى صيغة تقرير المبدأ العام: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: 13)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً ﴾ (الملك: 15).

ومنها أن الخالق جعل حرية الإنسان (فى الفعل والاعتقاد والترك رهناً بإرادته): ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر: 38)، ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: 29).

ومنها أن الخالق يمنح الإنسان وظيفة لم يمنحها لغيره من المخلوقات حتى الملائكة، وهى وظيفة الاستخلاف فى الأرض ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:30).

وليس المجال هنا لتفصيل القول عن مظاهر تكريم الله للإنسان، كمخلوق جعل الخالق فى بنيته التكوينية وحدة جامعة بين عناصر المادة والروح؛ ليكون مجمعا بين عالمى الغيب والشهادة، وهمزة الوصل بين عالمى الفناء والبقاء فى صورة تجسد مبدأ التوحيد بين الإنسان والكون؛ فى صور معرفية، تتجلى مظاهرها فى أشكال متعددة.

تتمثل هذه الوحدة فى وحدة البدء للكون والإنسان ووحدة المصير، فالبدء كان من الله: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (الرعد:16) ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر: 49)، والمصير يكون إلى الله: ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ (الأنبياء:93)، ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (النور: 42).

وتتمثل فى وحدة الخالق ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان: 11).

وتتمثل فى وحدة التكوين والعنصر المادى فإن عناصر الكون الطبيعى واحدة لم ولن تتغير سواء تجسدت هذه العناصر فى شكل إنسان أو شكل حيوان أو نبات أو جماد .

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ (فاطر: 11)، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ (نوح: 17 - 18)، ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ (طه: 55)، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس: 36).

وتتمثل هذه فى وحدة النظام الحاكم لكل ذرات هذا الكون من سمائه إلى أرضه بما فيه ومن فيه الإنسان والحيوان والنبات والجماد. فالقانون الحاكم واحد وإن تعددت مظاهره الكونية فى النشوء والصيرورة والمصير، قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: 2)، ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك: 3).

وتتمثل هذه الوحدة فى أن مصدر القانون الحاكم للكل واحد وليس متعددًا، فالذى خلق هو الذى قدر فهدى، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (الأعراف: 54)، ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّه ﴾ (هود: 123)، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (آل عمران: 154)، فالأمر هنا يتعلق بتقدير الخالق للخلق كمًّا وكيفًا. وفى كل مخلوق بحسبه فعالم الإنسان له أمره التكوينى والوجودى، وعالم النبات والحيوان والجماد كل له أمره الذى يخصه تكوينًا ووجودًا. بداية ونهاية قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾ (فصلت: 12).

وتتمثل فى وحدة المنهج ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝ ﴾ (الأحزاب: 62).

ويرتبط بمظاهر هذه القراءة التوحيدية فى كل مستوياتها المتعددة نوع من التكريم الإلهى للإنسان عن سائر ما عداه، وينفرد بخصوصية تميزه عن غيره فى مظاهر متنوعة، من مظاهر هذه الخصوصية أنه الكائن الوحيد المؤتمن على هذا الوجود كله والمكلف باكتشاف قوانينه من سمائه إلى أرضه ؛ بحثًا وتأملاً واكتشافًا وتسخيرًا وتعميرًا. قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (الأحزاب: 72).

وهذا الموقع الوجودى للإنسان جعله مؤهلاً؛ ليحتل مكانة الخلافة والسيادة على الكون بأمر من الخالق، حسب علمه بأهلية الإنسان لهذه المكانة، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:30).

ومن مظاهر هذه الخصوصية أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى أنعم عليه الخالق بأن خلقه بيده دون غيره قال تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ (سورة ص: 75).

ومن مظاهر هذه الخصوصية أن الله خلقه على نحو خاص يؤهله أن يفعل بمقتضى إرادته واختياره وليس بمقتضى الطبع والغريزة كبقية الحيوانات. وكان من آثار هذه الخصوصية أنه الكائن المؤهل للتكليف الشرعى أمرًا ونهيًا، وحارسا على حفظ القيم الأخلاقية فى واقعه الاجتماعى.

وكل هذه المعانى تمثل روح العقيدة الإسلامية ورصيدها الحضارى التى يجب أن يصدر عنها كل فكر فلسفى يتصل بالإنسان والكون والوجود، كما

أن فلسفة الوجود فى الإسلام لا يقف الحديث عنها عند مجرد الوجود اللحظى فى هذه الحياة الدنيا فقط؛ بل يتعداه إلى البحث فى الوجود الأبدى الذى جذرته عقيدتنا فى فكر كل مسلم ووجدانه، فإن حياة الإنسان ليست قاصرة على اللحظة الراهنة التى يحياها فى دنياه أو تنتهى بمجرد مفارقة الروح للبدن بالموت، كما هو الشأن فى الفلسفات المادية، بل إن هذا الوجود اللحظى مقدمة للوجود الأبدي الخالد الذى بشرت به عقيدتنا الإسلامية؛ إذ لو كان الوجود قاصرا على اللحظة الراهنة لكان ضربًا من العبث، ومظهر الفوضى التى لا مبرر لها ولا حكمة فيها، ولذلك كان الإيمان بخلود النفس مظهرا من مظاهر الخصوصية الإسلامية؛ التى ينبغى أن ينعكس أثرها فى فكرنا الفلسفى ليكون الإيمان بها والبرهنة على صحتها مدخلا للاطمئنان القلبى، ومصدرا من مصادر النفس المطمئنة، حيث ينفتح أمامها أبواب الأمل فى رحمة الله، وتكون مبعثا للإحساس بالسعادة ومحاربة ونفياً لكل ألوان اليأس؛ مخافة أن يتسرب إلى النفس فيصيبها بالقنوط، وهذا لا يتحقق إلا إذا انعكست هذه المعانى فى فكرنا الفلسفى.

لقد طغت المشكلات الفكرية الوافدة بتحليلاتها الفلسفية على تراثنا الفلسفى والكلامى، وتراجعت النظرة الإسلامية وتحليلاتها عن مكانها ومكانتها لتحتل مكانتها النظرة الوافدة، فأصبحت التحليلات الفلسفية عندنا صورة مشوهة لنظرة الآخر إلى الوجود والإنسان والقيم الأخلاقية.

وأخذت خصوصية المصطلح الإسلامى تذوب أو تتلاشى فى المصطلح الفلسفى الوافد، وأخذت المفاهيم اليونانية تحتل مكانة المفاهيم الإسلامية فى التعبير عن الفلسفة الإسلامية، فاحتل مفهوم واجب الوجود مكانة مفهوم الربوبية، واحتل مفهوم المحرك الأول عند أرسطو مكانة مفهوم

الخالق فى الفلسفة الإسلامية، واحتلت صفات المحرك الأول مكانة صفات الخالق الواردة فى القرآن الكريم.

واحتلت قوى النفس المعرفية مكانة الوحى فى الإسلام، واحتل مفهوم الحكيم مكانة مفهوم النبوة فى الإسلام.

وتلاشى مفهوم البعث ليظهر مكانه مفهوم السعادة الروحية للنفس بعد فناء الجسد. وتبع ذلك الانقلاب الفكرى انقلاب آخر فى العلاقة الحاكمة بين مفهوم الفلسفة الإسلامية ومرجعيتها المحددة لخصوصيتها وهويتها وهى الكتاب والسنة.

وبدأ المتكلمون الذين كانوا يمثلون الخصوصية الحضارية للفلسفة الإسلامية يميلون شيئا فشيئا إلى ذلك الاتجاه الفلسفى الوافد عملاً بمبدأ (تبادل الأسلحة) فطغى المصطلح الفلسفى الوافد على المصطلح الإسلامى الأصيل فى كتابات علماء الكلام، وتبع ذلك بالضرورة إلزامات عقلية ناتجة عن استعمال المصطلح الوافد، ولم يسع المتكلمون الانفكاك منها فتسللت إلى فكرهم تلك المفاهيم والمعانى الوافدة دون أن ينتبهوا إلى هذه الخطورة.

ولعل من يقرأ تراث أو شروح الطوسى والرازى وأبى البركات البغدادى وعضد الدين الإيجى وتعليقاتهم على ابن سينا يدرك الأثر الفلسفى الوافد على خصوصيتهم الفلسفية الإسلامية . ولم تعد تقرأ فى تراث هؤلاء إلا ألوانا من الحوار العقلى التجريدى حول الألفاظ ودلالتها ولوازمها وأصول المذاهب العقلية وما يلزم عنها، والناظر فى مؤلفات المناظرين منهم يجد نفسه يحرث فى حقل لا يجنى منه إلا الخلاف بين الفرق وعلماء المذاهب ،مما دعت معه الحاجة إلى إعادة النظر فى هذه الفلسفة من حيث المضمون والمنهج والتحليلات وإعادة الصياغة.

إعــادة القــراءة:

من هنا كانت الحاجة ملحة إلى إعادة قراءة تراثنا الفلسفى والكلامى بوعى، نعيد إليه ما أهمله التاريخ من الخصوصية الإسلامية التى تؤكد ذاتية الأمة وأصالة قيمتها الحضارية، يحتاج منا تراثنا الفلسفى أن نعيد قراءته لنميز بين الأصل والدخيل، بين ما يعبر عن ذاتية الأمة وخصوصيتها، وما هو وافد إليها من الثقافات الأخرى، نميز بين المشكلات الحقيقية والمشكلات الزائفة التى مزقت شمل الأمة وفرقت جماعتها.

إن أمتنا الإسلامية تعيش الآن بؤرة الصراع العالمى فكرا وثقافة وحضارة، وما لم تتشبث الأمة بخصوصيتها الثقافية، وتعبر عن ذلك فى فكرها الفلسفى؛ فإن عوامل الفناء تتسارع لمحو هذه الخصوصية والقضاء عليها . فمن المعلوم أن هذه الأمة تحمل إلى العالم كله رسالة النور وطوق النجاة ،وتعيش مع الحضارات الأخرى سنة التدافع الوجودى فتأخذ وتعطى وتتأثر وتؤثر، وفى هذه الحوارات التدافعية يتنافس المتنافسون، ويتمسك كل فريق بخصوصيته ويعتز بهويته، وهذا أمر مشروع لكل صاحب فكرة ومذهب، مادام يملك برهان الحق ودليل الصواب ونحن أقدر الناس على ذلك؛ لأننا أصحاب كتاب ودعاة حق وأهل عقيدة سماوية لها منهجها فى تفسير الوجود والإنسان والمبدأ والمصير وعلاقة الإنسان بالكون والمجتمع، وينبغى أن يتأسس على ذلك المنهج تحليلات المفكر المسلم للوجود بداية ونهاية ووظيفة، ويستمد منه نظره البرهانى فى تفسير العلاقات السببية المتبادلة بين ظواهر الكون وعلاقة الإنسان بذلك.

إن هذا المنهج يتميز عن المناهج الفلسفية الأخرى بأنه يحمل فى دلائله

عوامل البرهنة اليقينية على صحة المسائل الفلسفية التى يتناولها إقناعا للعقل واقتناعا بالقلب واطمئنانا للنفس، بحيث تكتمل فى الإنسان قناعات كل إمكاناته المعرفية العقلية والوجدانية على سواء، كما يتميز هذا المنهج بنظرته التحليلية للوجود الإنساني عن الفلسفات الأخرى التى تجعل من الوجود والإنسان كما مؤقتا وكيفا عابثا لا غاية له فى الوجود إلا لحظة يعيشها الإنسان يشبع فيها رغباته الحيوانية، ثم ينتهى الموقف كله بنهاية مأسوية عبثية هى الفناء المطلق .. أشبه بفصول الملهاة.

إن فلسفتنا الإسلامية مؤسسة على منهج ربانى يجعل للوجود معنى وللإنسان وظيفة، فالوجود لم يخلق عبثا لا غاية له ولا هدف منه. بل له غاية مقصودة وهدف مطلوب، وعالم الشهادة فى فلسفتنا لم ينفصل فى حكمته الوجودية عن عالم الغيب، وليست المادة فى الفلسفة الإسلامية مستقلة فى وجودها عن قانونها الغيبى الحاكم لها والمتحكم فيها، كما هو الشأن فى المذاهب المادية قديمها وحديثها.

والوجود فى فلسفتنا ليس مبتوت الصلة بخالقه كما هو الشأن فى فلسفة أرسطو ورأيه فى المحرك الذى لا يتحرك، وإنما هو آية دالة على خالقه وتحمل مفرداته دلائل صفاته، وتجليات أسمائه الحسنى من العلم والحكمة والإرادة والقدرة.... الخ.

والوجود فى فلسفتنا صفحة معروضة على العقل الإنسانى ليقرأها بتكليف إلهى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: 1). فالخلق كله من عالمه العلوى والسفلى صفحة معروضة على العقل أن يقرأها باسم (ربك) وليس باسم المادة ولا باسم الصدفة ولا باسم الطبيعة أو الدهر، يقرأ فيها

ويقرأ منها على قدر استطاعته.

والوجود فى فلسفتنا يحمل فى قوانينه برهان العقل على فساد رأى القائلين بالصدفة أو المادة أو الدهر، فما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت، وكل شىء عنده بمقدار، ومهمة الفيلسوف أن يجلى هذه المعانى فى تحليلاته الفلسفية، ويعيد إليها اعتبارها المهدر فى تفسيراته العلمية، وتلك مهمة لا يفطن إليها إلا أولو الألباب، وأصحاب العزائم والنوايا الصادقة .

كما إن الإنسان فى فلسفتنا الإسلامية ليس كائنا بيولوجيا يعيش ليأكل، ويحيا ليشبع رغباته، ويتمتع بشهواته البهيمية، وإنما هو كائن متسامٍ جمعت بنيته الوجودية بين الجانب الترابى: ﴿ **وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا** ﴾ (نوح: 17) والجانب الروحى: ﴿ **فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ** ﴾ (الحجر: 29) وهو مكلف بمقتضى إيمانه أن يوفق بين هذين الجانبين(الترابى والروحى) فى سلوكه البشرى وتلك خصوصيته الإنسانية دون سائر الكائنات الأخرى. إنه الكائن الوحيد المكلف بأن يجمع فى سلوكه بين متطلبات المادة والروح فى توازن يجسد قول الرسول ﷺ: « **إن لربك عليك حقا، وإن لبدنك عليك حقا، فأعط كل ذى حق حقه** » إن الإنسان فى فلسفتنا الإسلامية له خصوصية تميز بها عن سائر الكائنات الأخرى تجسدت فى وظائفه القرآنية:

1- الاستخلاف فى الأرض. ﴿ **إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ** ﴾ (البقرة:30).

2- تعمير الكون. ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا** ﴾ (هود: 61).

3- العبودية الاختيارية للخالق. ﴿ **وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ** ﴾ (الذاريات: 56).

إن هذه الأوامر الثلاثة تحدد وظيفة الإنسان المسلم وتميزه بها عن سائر الكائنات، ومهمة الفيلسوف المسلم أن يجلى هذه المعانى فى تحليلاته الفلسفية لعلاقة الإنسان بالكون وعلاقته بالخالق وتلك لعمرى خصوصية لا نظير لها فى أى مذهب فلسفى آخر، وما لم تكن هذه المعانى واضحة المعالم (تحليلا وتأملاً وتذكيرًا بها) على لسان الفيلسوف وفى قلمه؛ فإنه لا يعبر عن خصوصية هذه الفلسفة، ولا يحمل طابعها ولا هويتها.

لقد عاش القدماء مشكلاتهم الثقافية والعقائدية، وكانوا أمناء فى دفاعهم عن العقيدة وفى تناول مشكلاتهم وقضاياهم التى عالجوها بمنطقهم هم .. ولكى نكون أمناء على وظيفة علم الكلام فيجب علينا أن نفعل كما فعل القدماء، ونحسن توظيف علم الكلام فى علاج مشكلاتنا المعاصرة لنا الآن، وهى تختلف بالضرورة عن مشكلات القدماء، كما تختلف أيضا عن مشكلات غيرنا من الأمم وأصحاب الحضارات المختلفة .

تراثنا الفلسفى بين قراءتين:

وأقصد بتراثنا الفلسفى هنا (علم الكلام والفلسفة الإسلامية) لأن هذين العلمين هما جناحا الفكر الفلسفى فى تراثنا القديم، وهذان العلمان قد احتلا مكانة مرموقة فى تراثنا ولا زالا إلى يومنا هذا، فما زالت قاعات الدرس الأكاديمى حافلة بآراء المدرسة المشائية (الفارابى وابن سينا وابن رشد) فى النفس والسعادة، والوجود والعدم والخلاء والملاء، وآراء أرسطو فى الإلهيات التى أخذت بكل من الفارابى وابن سينا ولم يمسها شىء من النقد إلا على يد الغزالى فى كتابه العظيم التهافت، الذى بين تهافت الفلاسفة منهجيا فى البنية العقلية التى أسسوا عليها موقفهم من قضايا الميتافزيقا.

ولا شك عندي أن هذا الدور العظيم الذى قام به علماء الكلام والفلاسفة قد أدى مهمة كبيرة فى الدفاع عن الإسلام وعن العقيدة، واستطاعوا أن يبرهنوا عقليا على صحة آرائهم وعقيدتهم وأن يدحضوا آراء المخالفين لهم فى العقيدة وأن يجمعوا فى حوارهم مع المخالفين بين صحة الدليل النقلى والعقلى معًا.

لكن ما لبث أن تغيرت مفاهيم كثيرة عند المتأخرين، فأحدث هذا التغيير خللاً فى مسيرة الأمة كلها. ومن أبرز هذه المفاهيم التى أصابها الخلل مفهوم العبادة ومفهوم العلم. فلقد اختزل المتأخرون مفهوم العبادة فى ممارسة الشعائر الدينية فقط، وتبع ذلك اختزال مفهوم العلم فى مجموعة العلوم الشرعية المتعلقة بالعبادات والمعاملات، ولم يعد للعلوم الكونية مكانتها المطلوبة شرعًا بين هذه العلوم، بل زاد الأمر خطورة أن بعض المشتغلين بالعلوم الشرعية أخذوا ينالون من المشتغلين بالعلوم الكونية ويتهمونهم فى عقيدتهم برقة الدين أحيانًا والزندقة أحيانًا أخرى، وترتب على ذلك أن اهتم المتأخرون بقراءة ابن سينا الفيلسوف المتأله، لبيان قصور مذهبه وتقصيره، وأهملوا قراءة ابن سينا الطبيب والفلكى والكيميائى.

وقرأوا الرازى الملحد المنكر للنبوة، وأهملوا الرازى الطبيب والكيميائى، وقرأوا ابن رشد الناقد للأشاعرة، وأهملوا قراءة ابن رشد الطبيب والكيميائى، كما حدث نوع من الزهد فى قراءة الخوارزمى وابن الهيثم والبيرونى والطوسى الفلكى وجابر بن حيان وغيرهم من المشتغلين بالعلوم الكونية مما أحدث فراغًا، وإن شئت فقل جفوة، بين الملتزمين شرعًا وهؤلاء العلماء، وترتب على ذلك انصراف الهمم عن ممارسة العلوم الكونية وعن الاشتغال بها بصفة عامة.

وقد أشرت فى دراسة لى سابقة[1] إلى أن القرآن الكريم قد جعل هذا الكون من سمائه إلى أرضه موضوعًا للمعرفة وعمل العقل، وكلف الإنسان بذلك كما كلفه بالصلاة والصيام. ولكن المسلمين اختزلوا مفهوم العلم ومفهوم العبادة فى الصلاة والصيام والزكاة والحج، وأهملوا تمامًا التعبد لله بقراءة عالم الشهادة باعتباره مفتاحًا عمليًا لخشية الله والتعرف عليه سبحانه والتعرف على صفاته وأسمائه الحسنى.

ثم انتقل تراثنا العلمى إلى أوربا عبر روافد تاريخية معروفة، فكان الشرارة التى أيقظت أوربا من سباتها، وساعد على الانتقال بها من عصورها المظلمة إلى عصور التنوير والنهضة، فقد كان التخلف والجهل والشعوذة والخرافة تضرب أستارها على أوربا كلها، وكانت المعتقدات الخرافية تسيطر على عقول أبنائها فكرا وثقافة وسلوكا واعتقادًا. ولم تبدأ أوربا تتخلص من هذه الخرافات إلا بعد أن قرأت هذا التراث الإسلامى قراءة واعية.

لقد وقفت أوربا على عناصر النهضة فى تراثنا وكشفت عن عوامل التحضر فى العلم الوافد إليها من بلاد المسلمين فدرسوه ووعوه وأدركوا أهميته، وأخذوا فى الاشتغال به تعليما وتعلما، إلى أن ملأ عليهم حياتهم العلمية والثقافية على سواء. ومؤرخو الحضارات وعلماء التاريخ قد أشاروا إلى الفروق الحضارية وعوامل النهضة التى عاشتها أوربا قبل التعرف على الحضارة الإسلامية وبعدها، لقد كان أبرز عوامل النهضة التى اهتمت بها أوربا فى الحضارة الإسلامية هى العلوم الكونية والمنهج العلمى الذى تعرفوا

(1) الوحى والإنسان قراءة معرفية.

على عناصره فى الحضارة الإسلامية. وأدركوا أثر الحضارة الإسلامية فى الرقى والتحضر الذى انتقلت به أوربا من عصور التخلف الثقافى والاجتماعى إلى عصور التنوير والنهضة، والذى انتقل بها من التبعية المطلقة إلى الريادة فى العلم والتكنولوجيا المعاصرة.

لقد ركز العلماء فى أوربا على قراءة تراثنا الفلسفى ممزوجًا بروحه العلمية، وقرأوا التراث العلمى ممزوجا بروحه اليونانية المادية... وكان موقف المسلمين من هذا التراث هو الاكتفاء بقراءة الجانب الفلسفى منه فى الإلهيات الممزوج بالروح اليونانية المناهضة للإسلام، وكان من الطبيعى التحفظ على كثير مما جاء فيه، ورفض البعض الآخر له أحيانًا. وانعكس هذا الموقف تلقائيا على الجانب العلمى من هذا التراث. فكان حظه منا هو الآخر المخاصمة له وللمشتغلين به، وكان ذلك الموقف هو بداية الخطيئة التاريخية ولا أقول الخطأ. ولم نستيقظ لننهض بالتوبة من هذه الخطيئة إلا بعد أن تخلفنا عن قطار العلم بعصور وعصور، لقد نشأت الجفوة بين تراثنا الفلسفى وتراثنا العلمى، فلم نقرأ ابن سينا الطبيب والفلكى والفيزيائي كما قرأناه فيلسوفًا، ولم نقرأ ابن رشد الطبيب كما قرأناه ناقدًا للأشعرية، ولكن أوربا قرأت ابن سينا العالم الطبيب والفيلسوف معًا، وقرأت ابن رشد الطبيب والعالم والفيلسوف، فوضعوا أيديهم على العلم السينوى والرشدى والمنهج العلمى الذى تبناه هذا العالم والفيلسوف معًا، كما قرأوا ابن الهيثم والخوارزمي والرازي وابن النفيس، ونهضوا به فى الوقت الذى توقفنا نحن عند قراءة الجانب الإلهى فى فلسفة هؤلاء المفكرين، ولما كان نصيبها منا هو الخصومة والرفض، فقد انعكس هذا على تراثهم العلمى فلم يحفل منا بالقدر اللائق به، ولم نعطه حقه فى الاهتمام به كما فعلت معه أوربا. وكان لهذا

الموقف أثره السيئ فى عدم الإفادة العلمية من تراث هؤلاء، فهاجر هذا العلم إلى أوربا واكتفينا منه بالجانب الميتافزيقى لاتصاله بالعقيدة، ولم ننتبه إلى خطورة هذا الموقف إلا بعد إحساسنا بالتخلف الذى نعانى منه الآن وأصبح حالنا كما قال الشاعر:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأ

والمـــاء فـــوق ظهورهـــا محمـــول

لقد كانت مفردات الثقافة الأوربية قبل احتكاكها بالحضارة الإسلامية قاصرة على ما يمليه عليهم رجال الكنيسة من شعوذة وخرافات وكهانة، وبعد القرن الثالث عشر وجد علماء الحضارة أن عناصر المنهج العلمى وأنوار العلم بدأت تظهر آثارها فى مؤلفات مجموعة من العلماء فى أوربا وأخذت العلوم الكونية تحتل مكانها فى قاعات الدرس، وتسهم فى بناء الفرد والمجتمع ثقافيا وسياسيا وخلال أقل من قرنين سيطرت لغة العلم ونور العقل على أوهام الخرافة والشعوذة، وبدأت أوربا نهضتها وظل المسلمون يراوحون مكانهم...

لقد قرأت أوربا تراثنا الإسلامي الذى جمع بين النظرة الفلسفية والعلمية معاً فى المؤلف الواحد وللمفكر الواحد، فأفادوا منه المنهج العلمى على مستوى النظر والتطبيق معا واكتفينا بقراءة تراثنا الفلسفى الدينى النظرى فقط.

لقد قرأ الغرب تراثنا بجناحيه (العلمي والفلسفى) وقرأنا نحن أحد هذين الجناحين واكتفينا به عن الآخر فتحرك الغرب بقراءته وتوقفنا نحن عنده، ووقفنا به نختلف حوله ونختلف فيه، وإذا حاول البعض أن يلفت

النظر إلى ضرورة إعادة القراءة والتجديد فكرا ونظرا ومنهجا متمشيا مع حركة الحياة وتطور العلم؛ كان حظه الاتهام والنيل منه، وكانت النتيجة تبعا لذلك هى ما يعيشه عالمنا الإسلامى تخلفا وجهلا وفقرا واختلافات.

ولقد أصبحت إعادة القراءة لهذا التراث الفلسفى ضرورة ملحة، نقرأه بعين ناقدة نكشف بها عيوبنا لأنفسنا حتى نكون أمناء فيما نقول، لقد بدت العلة مستعصية على العلاج، واستفحل الداء واتسع الخرق على الراقع كما يقولون، وأصبح من الضرورة أن نتساءل حول كثير مما يلقى فى قاعات الدرس الأكاديمى من قضايا علم الكلام. وما علاقته بالمسلم المعاصر وما هو دور الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام فى النهوض بالواقع الذى نعيشه.

بين آيات الله القولية وآياته الفعلية

نريد فى هذه الدراسة أن نعرض موقف القرآن الكريم من العلوم الكونية التى جسدها فى حديثه عن عالم الشهادة، ونقارن بينه وبين عرض القرآن لمسائل الاعتقاد على المؤمن، وهى كلها مسائل تنتمى إلى عالم الغيب بينما تنتمى مسائل العلوم الكونية إلى عالم الشهادة. ثم نترك للقارئ الحرية فى المقارنة التى أراها ضرورية بين الموقفين.

أ- موقف القرآن من عرض قضايا العقيدة ومقصوده منها، وكيف كان عرضه لها مجملاً بعيدًا عن التفصيلات والتفريعات التى وجدناها فى علم الكلام، ثم مقارنة ذلك بموقف المتكلمين.

ب- موقف القرآن الكريم من عالم الشهادة ومقصوده من الحديث عن مفردات هذا الكون وعرْضها على عقل المؤمن، ولماذا ختم آياته الكونية بقوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: 221)، ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (الأنعام: 90)، ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (الأنعام: 65). ثم مقارنة ذلك بموقف المتكلمين أيضًا، لنرى الفرق الكبير بين الموقفين، كيف كان حديث القرآن عن عالم الشهادة أكثر تفصيلاً وحديث المتكلمين عنه أكثر إجمالاً، وكيف كان حديث القرآن عن مسائل العقيدة مجملاً بعيدًا عن التفصيلات، بينما كان حديث المتكلمين عنها أكثر تفصيلاً وتفريعًا.

جـ- ثم لابد من طرح السؤال. ألسنا فى حاجة إلى إعادة القراءة لعلم الكلام على نحو يحقق مقاصد القرآن وأهدافه من حديثه عن عالم

الشهادة وحديثه عن عالم الغيب ومسائل الاعتقاد معًا، وكيف جاء حديث القرآن عن مسائل الاعتقاد مجملاً بعيدًا عن التشقيق والتفريع وإثارة الخلافات فى الوقت الذى كان حديث المتكلمين عنه يميل إلى التفصيلات والتفريعات التى أثارت الشقاق والخلاف بين الفرق الإسلامية؟ إن مطلوب القرآن وأهدافه من الحديث عن عالم الغيب عمومًا ومسائل العقيدة خاصة هو الإيمان بها والاعتقاد فيها والاستدلال على صحتها دون البحث فيها أو تفصيل القول فيها لعلم الله السابق أن العلم بتفصيلاتها فوق مدارك العقول، ولذلك لم يطلب القرآن من المؤمن أن يبحثها بمنطق العقل ليعرف كنها أو كيفها أو حقيقتها، وكفاه من العقل أن يستدل به على صحة الخبر الذى جاء به الوحى عنها، فإذا ما صح له الخبر عن ذلك الغيب فقد وجب الإيمان به، ما دام قد صح عنده دليل صحة الخبر فى نفسه.

هذه الأسئلة وغيرها تمثل المحور الأساس لهذه الدراسة المتواضعة التى أرجو من طرحها أن أفتح الباب لطلاب العلم أن يناقشوها بشيء من الأناة والتروى يحدوهم نبل المقصد وتصحيح المسار إن شاء الله.

لقد نزل الوحى على رسول الله ﷺ بنوعين من الآيات:

آيات الله المقروءة؛ القرآن الكريم، وكانت أول آية فيه تشير إشارة واضحة إلى قراءة آيات الله الكونية.

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ﴾ (العلق: 1- 3) جاء الأمر بالقراءة المباشرة للكون ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾،

وأن تكون القراءة باسم ﴿ رَبِّكَ ﴾؛ لأن الخلق والمخلوق من متعلقات الربوبية، نزلت الآية الأولى من القرآن الكريم ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ وهى آية الله القولية لتأمرنا بقراءة آيات الله الفعلية الكونية ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ وتأمرنا بأن يكون الكون الذى خلقه الله موضوعًا للقراءة العقلية، مفعولاً للفعل اقرأ. وفى ذلك إشارة مباشرة إلى ضرورة قراءة الكون الذى هو (آيات الله الفعلية) ونتقرب إلى الله بقراءة الكون تمامًا كما نتقرب إلى الله بقراءة القرآن الكريم الذى هو (آيات الله القولية)، وأن الربط بين القراءتين مطلب قرآنى وأمر إلهى. ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ والقرآن الكريم قد سمى هذا الكون آية، وسماه آيات، وسمى كل جزء فيه آية، كما سمى القرآن نفسه آية، وسمى كل جزء فيه آية، ومعلوم أن الآية القرآنية نحن مطالبون بتلاوتها والتقرب إلى الله بالاستماع إليها وحسن تلاوتها وتدبر معانيها، فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَن اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ مُضَاعَفَةٌ، وَمَنْ تلاهَا كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

والقرآن الكريم هو الذى عرض علينا آيات الله الكونية، وأمرنا بحسن قراءتها والتأمل فيها باعتبارها آيات الله الفعلية، وباعتبارها التجربة العملية لتطبيق سنن الله فى كونه، وباعتبارها مجرى قوانينه فى التعمير والتسخير، تعمير الأرض كما أمر بذلك القرآن الكريم ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ (هود: 61).

وتسخير الكون لصالح الإنسان ﴿ **أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾ (لقمان: 21). وهاتان الوظيفتان (التعمير

(1) رواه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة.

والتسخير) لا يمكم القيام بهما إلا إذا أحسن المسلم قراءة آيات الله الكونية، كما أمرنا بذلك القرآن الكريم، وأن تكون قراءة عالم الشهادة باسم ربك الذى خلق، أن تكون قراءة عالم الشهادة المخلوق باسم ربك الخالق. وليس باسم المادة، ولا باسم الصدفة، ولا باسم الطبيعة، ولا باسم الأقوال العبثية، وكما أن قراءة الآيات القولية أمر إلهى نتقرب به إلى الله، فإن قراءة آيات الله الكونية أمر إلهى كذلك ينبغى ممارستها تقربًا إلى الله، ولا ينبغى أن يفهم أحد أن قراءة أحدهما تكون بديلاً عن الآخر لإقامة النهضة؛ لأن آيات الله المقروءة التى نزل بها الوحى على قلب النبى ﷺ هى التى أمرت المسلم بقراءة آيات الله المنظورة فى هذا الكون، ولقد تعددت إشارات القرآن الكريم إلى عالم الشهادات؛ ليكون موضع تدبر وتذكير وتذكر وتفكير وتفكر، ليكون النظر فى هذا العالم المشهود بالحواس مدخلاً للتعرف على الخالق من خلال التعرف - بأسلوب علمى ومنهج دقيق - على صنعته ومظاهر التدبير والتقدير، وظواهر ربط الأسباب بالمسببات، حيث يرون فى قانون السببية إشارة إلى حكمة الخالق فيما خلق، وحسن ربط الأسباب بالمسببات بمفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا هو، وبذلك يكون بين يدى المسلم كتابان للتعرف على الله، وعلى قوانينه، والتعرف على تجليات صفاته العليا وأسمائه الحسنى.

الكتاب الأول منهما القرآن الكريم، هذا الكتاب المقروء، والذى يشير فى آياته الكريمة إلى المنهج الربانى الذى وضعه الخالق؛ لتستقيم به حياة المسلم على مستوى علاقته بنفسه، وعلى مستوى علاقته بالمجتمع، وعلى مستوى علاقته بالكون وما فيه، ثم على مستوى علاقته بالله ربًّا خالقًا وإلهًا معبودًا، وذلك من خلال أوامر القرآن ونواهيه ووصاياه الأخلاقية، وخلال

القصص الواردة فى القرآن؛ لتكون بمثابة الدرس العملى؛ لنستخلص منها العبرة التاريخية، التى نعيش بها حاضرنا، ونستضىء بها لمستقبلنا.

الكتاب الثانى، وهو كتاب الله المنظور، هو هذا العالم الكونى، هو عالم الشهادة من سمائه إلى أرضه بما فيه من نجوم وشموس وأقمار وكواكب ومجرات، وبما فى الأرض باطنًا وظاهرًا من الإنسان والحيوان والنبات والجماد والحشرات، وما علمناه من هذا العالم مما هو خاضع لمداركنا الحسية والعقلية، وما غاب عنا مما لم ندركه من هذا العالم. كل ذلك آية وآيات محسوسة لنا ومنظورة لأعيننا، وكما أن كتاب الله المسطور والمقروء آية وآيات نعيشها بقلوبنا وعقولنا، فإن الكون هو كتاب الله المنظور بحواسنا الخاضع لسلطان عقولنا، وهذان الكتابان يرتبط أحدهما بالآخر برباط وثيق، أشار إليه القرآن الكريم فى العديد من آياته الكريمة. وكتاب الله المقروء القرآن الكريم هو الذى أمرنا بضرورة قراءة كتاب الله المنظور، وهو الذى سماه آية، وسمى ما فيه من مظاهر وظواهر آيات، وأمرنا بقراءة هذه الآيات بإعمال العقل فيها تدبرًا وتأملاً؛ لنحسن تسخيره وتعميره لصالح الإنسان.

كتاب الله المنظور

لقد نزل القرآن الكريم أول ما نزل منه فى مكة المكرمة، ومكث الرسول ﷺ بها ثلاثة عشر عامًا يدعو الناس إلى دين الله، ويبلغهم أصول العقيدة الإسلامية، التى تأسست أركانها وتم بناؤها فى مكة، وكان تأسيس العقيدة الصحيحة هى الهم الأكبر الذى شغل به الرسول ﷺ فى مكة؛ لأن بناء العقيدة الصحيحة فى قلب المؤمن هى أساس البناء السليم للفرد وللمجتمع معًا؛ لكى يصبح القلب متفتحًا لقبول أوامر الله ونواهيه من الصلاة والصيام

والزكاة والحج والانتهاء عن كل ما نهى عنه، وما لم يصح أساس البناء فلن يصح بالتالى إقامة بناء عليه، وإنما يكون مآله إلى الهدم؛ لأن ما لا أساس له فإن مصيره إلى الضياع، ولعلنا من هنا نستطيع أن نفهم السر فى أن القرآن المكى كان موجهًا فى الكثير من الآيات إلى ترسيخ عقيدة الإيمان بالله ورسوله، عقيدة الإيمان بالبعث واليوم الآخر، عقيدة الإيمان بالنبوة والوحى، عقيدة الإيمان بما صح من كتب الله السابقة كالتوراة والإنجيل وألواح موسى وزبور داود، خاطب القرآن الكريم أهل مكة بأصول الاعتقاد باعتبارهم الجيل الأول الذى تلقى الخطاب عن الرسول، وعاصر نزول الوحى وعايشه، ومن فضل الله ورحمته بهم أنه خاطبهم بآياته القولية النظرية التى نبهتهم وأرشدتهم إلى قراءة آيات الله فى أفعاله الكونية، تأمرهم بقراءة أفعاله فى كونه، وتدبر آياته المنظورة لهم والمشهودة بأعينهم فى هذا العالم ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الغاشية: 17-20) هذه الآيات الكونية التى تشكل بمفرداتها البيئة المحيطة بهم فى صحراء مكة من الأرض والجبال والنبات والحشرات والحيوان والأفلاك، فلم تسرح بهم الآيات فى تهويمات عقلية ولا خيالات فلسفية، وإنما نبهتهم إلى النظر فى البيئة التى يعيشونها؛ لأن القراءة الصحيحة لهذه الآيات الفعلية المحيطة بهم فى هذا الكون سوف تقودهم – إن صحت القراءة – إلى الإيمان بآيات الله القولية فى القرآن الكريم أن يؤمنوا بأن محمدًا نبى الله ورسوله، أن يؤمنوا بالبعث بعد الموت، والمطلوب من القارئ لآيات الله الكونية فى هذا العالم أن يخلص العقل من الشكوك والأوهام لتكون القراءة صادقة وصحيحة، كما قال تعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ

فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ﴾ (الملك: 3 – 4). وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧ ﴾ (سورة ق: 37). فالقراءة الصحيحة شرط للوصول إلى الفهم الصحيح والنتائج المطلوبة، وهذا كان موضع حرص شديد واهتمام كبير من الخطاب القرآنى لكل قارئ أو راغب فى ا لقراءة، فجاءت الآيات القرآنية تعدد آيات الله الكونية على العقل الخالى من الشبهات، وتذكر المسلم بها، ثم تختم الآية بهذا اللون من الخطاب الإرشادى. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٧٩ ﴾ (النحل: 79)، ﴿ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤ ﴾ (البقرة: 164)، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٣ ﴾ (الرعد: 3)، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١ ﴾ (الزمر: 21).

ولقد تعددت إشارات القرآن الكريم وأوامره للمسلم أن ينظر فى عالم الشهادة، وأن يتأمل مفرداته وأنواعه، وأن يجول بناظريه فى هذا العالم من سمائه إلى أرضه، وأن يعتبر هذا العالم معرضًا تعرض فيه الصنعة الإلهية بكل أنواعها ومفرداتها، ثم يتأملها العقل المسلم، وأن يقرأ كل عقل منها على قدر استطاعته من المواد للتأمل والتدبر، وأن يقارن بين أوامر القرآن النظرية التى أمرتنا بتدبر هذا العالم باعتباره آيات الله الفعلية ليجد أن هذا العالم أشبه بالمعمل الذى يتخذه العالم محرابًا لإجراء تجاربه العلمية؛ ليصل من هذه التجربة إلى اليقين الذى يريده. نعم ما أشبه هذا العالم بالمعمل الذى تمثل كل مفرداته تجربة حية يؤسس عليها يقين المسلم، وعلى القارئ لهذه الآية أو تلك أن يحسن القراءة، كما أن على العالم فى معمله أن يحسن إجراء التجربة مرات ومرات لكى يطمئن على صدق معطياتها. ﴿ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ ﴾ إذا أراد أن يصل إلى نتائج

يقينية، إن ما ذكره كتاب الله المسطور من صفات الخالق سبحانه وتعالى من العلم، والقدرة، والإرادة، والحكمة، والمشيئة العامة وغيرها من صفاته العليا قد فسرها كتاب الله المنظور، قد فسرها عالم الشهادة تفسيرًا عمليًا، وجسدتها مفردات الكون كتطبيق عملى لما جاء ذكره فى القرآن نظريًا، ليكون كتاب الله المنظور شاهدًا عمليًا بما جاء به كتاب الله المقروء، فهذا آية كونية منظورة، وذاك آية قرآنية مسطورة.

وكلا الكتابين يصدق بعضهما بعضًا، وكأن كتاب الله المنظور جاء تصديقًا عمليًا لكتاب الله المسطور، وكانت العلاقة بينهما أشبه بعلاقة التجربة المعملية بالنظرية العلمية، فإن التجربة الصادقة هى التى ترفع مستوى النظرية العلمية من مجال الفرض العلمى الظنى إلى مقام الحقيقة العلمية اليقينية – ولله المثل الأعلى فى ذلك – فإن كلام الله المقروء حق فى ذاته سواء صحت تجربة القارئ لعالم الشهادة أم لم تصح، وصدق الله العظيم ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (لقمان: 11).

ضرورة الجمع بين القراءتين:

إذا كان القرآن الكريم هو الذى أرشدنا فى آياته الكريمة إلى ضرورة الاهتمام بقراءة عالم الشهادة، فمما لا شك فيه أن إغفال المسلمين لهذه القراءة الكونية يعتبر إهمالاً لأوامر القرآن وتغافلاً عنها. ولو لم تكن قراءة عالم الشهادة على هذه الدرجة من الأهمية لما لفت القرآن الكريم نظر المسلمين إلى أهميتها، وما أمرهم بها، ولا التأمل فى هذا العالم، ولا توعدهم بالعقاب إن هم تغافلوا عنها. فإن كثرة الأوامر الإلهية فى القرآن الكريم بذلك تدل على أن قراءة عالم الشهادة أمر إلهى نتقرب به إلى الله كما نتقرب إليه سبحانه

بالصلاة والصيام والزكاة، فهذا أمر إلهى وذاك أمر إلهى، ولا يكون أحدهما بديلاً عن الآخر فى تنفيذ المنهج الإلهى لعمارة الكون وتسخيره لصالح الإنسان، ولا يكون أحدهما كافيًا عن الآخر فى حسن التقرب والتعبد لله؛ لأن القرآن الكريم هو الذى أقسم فى آياته المقروءة بآيات الله المنظورة على أن القرآن حق، وأنه وحى الله إلى نبيه ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ ﴾ (الحاقة: 38 – 40)، ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾(النجم: 1 – 4).

ومعلوم عند كل عاقل أن القرآن لا يقسم إلا بما عظم شأنه عند الله وعلا قدره عند الناس. ويقسم القرآن بالكون على ماذا؟ إنه يقسم بعظمة الكون على صدق القرآن فى نفسه، وإنه حق من عند الله وليس من عند محمد، وليس بقول شاعر ولا ساحر ولا كاهن.

وليس بعد هذا القسم دليل على اهتمام القرآن بعالم الشهادة ودليل على ضرورة الاهتمام به، وضرورة قراءته لتقف على مكنون أسرار الله فيه، إن هذين الكتابين يمثلان لحياة المسلم جناحى الطائر، فإن الطائر لا تستقيم حركته فى الهواء إلا إذا استعمل جناحيه معًا، يحلق بهما فى الفضاء؛ لكى يعبر مفازات الصحراء وأعالى الجبال لكى يصل إلى تحقيق غايته ومقصوده، كذلك حياة المجتمع الإسلامى لا تستقيم أبدًا إلا بحسن قراءة هذين الكتابين اللذين يصدق بعضهما بعضًا، ويعضد أحدهما الآخر، ويأمر أحدهما بقراءة الآخر.

وكما جمع الخطاب الإلهى بينهما فى آيات الله القولية المقروءة يجب على المسلم أن يجمع بينهما، يقرأ الكتابين قراءة توحيدية، يبتغى من ورائها

تحقيق الوظائف الكونية التى سبقت الإشارة إليها، وظيفة التسخير، ووظيفة التعمير، وما لم تكتمل هذه العناصر كلها فى قراءة المسلم لهذين الكتابين فإن قراءته تكون ناقصة، ويترتب بالضرورة على هذه القراءة الناقصة نقص آخر وقصور فى الواقع الذى يعيشه الإنسان فى حياته اليومية والاجتماعية، ونقص فى علاقته بالكون، وقد يترتب على هذا النقص فى القراءة نقص فى حاجة المسلم أن يمد يده للآخر من الذين أجادوا قراءة عالم الشهادة؛ ليطلب منهم ما عجز هو عن قراءته وتحقيقه، وما أسفرت عنه قراءته القاصرة من آثار وسلبيات تتمثل أحيانًا فى الحاجة إلى العلم الذى عجز عن الوصول إليه بسبب قصور قراءته، أو بسبب تقصيره فى قراءة آيات الله القولية، وأحيانًا تترك هذه القراءة القاصرة آثارها السيئة فقرًا وجهلاً وتخلفًا عن ركب الحضارة الإنسانية، وهذا أمر واقع لا محالة لكل من قصر فى قراءة أحد هذين الكتابين، وهذا كله واقع فى حياة المسلم المعاصر.

فهناك من قصر فى قراءة الكتابين معًا.

وهناك من قصر فى قراءة أحدهما، وهناك من عجز عن القراءة بالكلية. وفى معظم الأحيان فإن المسلمين جعلوا قراءة الكتاب المسطور بديلاً عن قراءة الكتاب المنظور، مكتفين بذلك لتحقيق مقاصد القرآن الكريم فى العبادات والمعاملات والشعائر والطقوس الدينية، ناسين تمامًا أن القرآن الكريم أمرنا بالتعبد لله بحسن قراءة الكتاب المنظور، كما أمرنا بالتعبد بحسن قراءة كتابه المسطور، وأن التقصير فى قراءة أحدهما أو إهماله بالكلية يعتبره القرآن نقصًا ونكوصًا عن أداء أوامر الله وعبادته، وعلى كل ذى عقل مسلم أن يسأل نفسه.

وما الفرق بين قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (البقرة: 43) وقوله سبحانه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ ﴾ (عبس: 24) وقوله سبحانه: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ ﴾ (الطارق: 5) إلا أن إهمال المسلم أو تقصيره فى أداء الصلاة سوف يعاقب عليه إن لم يتب وتقبل توبته، وعقابه يكون خاصًّا به هو، وإنه عقاب فردى.

أما إهمال الأمر الإلهى بالنظر فى آيات الله الكونية سوف تجنى ثمرته الأمة كلها فى الدنيا تخلفًا وفقرًا وجهلاً، ويحاسب عليه المسئولون أمام الله من العلماء والحكام يحاسب كل منهما على قدر مسئوليته؛ فالعقاب فى الدنيا عقاب جماعى، وفى الآخرة عقاب فردى، ومن هنا كان من واجب المسلمين أن يجمعوا بين قراءة القرآن الكريم تدبرًا وتفكرًا وفهمًا وفقهًا وقراءة الكون كشفًا عن قوانينه وتأملاً فى آيات الله المبثوثة فى مفرداته، وأن يحسنوا قراءة هذا الكون؛ لأنه المصدر والمنبع الذى به قوام حياتهم زراعة وصناعة وتجارة، وعلى قدر تقصيرهم فى القراءة الكونية تكون آثارها السيئة فى حاجتهم، ويكون فقرهم وجهلهم، ويكون عوزهم إلى الغير.

ومن فضل الله على الإنسان أن مفردات الكون لا تبخل على قارئها بالعطاء والسخاء، فهى أجود من الريح المرسلة لكل من نظر إليها وأحسن التأمل فيها ليتعرف عليها وعلى خصائصها ويتعرف على القانون الحاكم فيها والنظام العام الحاكم لمسيرتها من حين نشأتها إلى نهايتها، وكيف تؤدى وظائفها؟ وكيف يفيد الإنسان منها؟ وكيف يسخرها لصالحه فى حياته اليومية؟ ذلك لأن الله سبحانه وتعالى جعل كل ما على الأرض ذلولاً للإنسان طيعًا له، طوع إرادة الإنسان منه.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الملك: 15).

وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (الدخان: 11).

من هنا فإن مفردات عالم الشهادة من سمائه إلى أرضه وقوانين العلم بعالم الشهادة ونتائج هذا العلم تكشف عن نفسها، وتبوح بأسرارها لكل من طلب ذلك منها بالبحث والتنقيب وطول النظر، ولقد اعتبر الإسلام أن معاناة الباحث فى معمله طلبًا للكشف عن أسرار هذا العالم عبادة لله، وجعل مداد العلماء مساويًا لدم الشهداء فى ساحة الجهاد فى سبيل الله، وجعل تحصيل العلم الكونى بعالم الشهادة مفتاحًا طبيعيًا لخشية الله تعالى. فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر: 27-28)، وقد ورد فى الأثر "**أن مداد العلماء يساوى دم الشهداء عند الله يوم القيامة**".

فــروض الكفــايـــات

نؤمن نحن المسلمين جميعًا بأن كل آية وردت فى القرآن الكريم، ونزل بها الوحى على قلب النبى ﷺ واجبة التنفيذ والتطبيق اعتقادًا فيها وإيمانًا بها، وهذا مبدأ متفق عليه بين جميع المؤمنين، كما أن المتفق عليه أيضًا أن كل مسلم مسئول عن الإيمان والعمل بكل ما جاء فى كتاب الله تعالى على قدر استطاعته، كما أنه مسئول أيضًا بنفس الدرجة عن تبليغها إلى كل مؤمن على قدر استطاعته فى ذلك أيضًا. من هنا كان كل مسلم مكلفًا شرعًا بأمرين:

الأول: التطبيق العملى لكل آية من كتاب الله حسب علمه بها، وعلى قدر استطاعته لذلك.

الأمر الثانى: أنه مكلف بالبلاغ والتبليغ بها حسب استطاعته؛ لذلك قال صلى الله عليه وسلم: «**بَلِّغُوا عَنِّى وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَىَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1].

والقرآن الكريم قد اختص الفترة المكية من حياة النبى ﷺ بوضع المنهج التربوى لبناء المسلم بناء عقيديًا مؤسسًا على الإقناع العقلى بالبرهان والمنطق، كما اهتم أيضًا بتأسيس اليقين على مجموعة من الأسس التى شملت فيما شملت مخاطبة العقل والقلب والوجدان. بل كل ملكات الإنسان المعرفية ما عرفناه منها وما لم نعرفه، فاستوعب الخطاب القرآنى كل ملكات المعرفة الإنسانية التى زود الله الإنسان بها، ولم يقتصر خطابه على

(1) رواه البخارى فى صحيحه حديث رقم: 3461.

تناول العقل والمعقولات، ولا الحواس والمحسوسات، ولا الوجدان والوجدانيات، بل كانت البنية الإنسانية كلها موضع اهتمام الخطاب القرآنى؛ لأنه نزل ليخاطب الإنسان كاملاً وليس جانبًا واحدًا من الإنسان.. ولا ملكة معرفية واحدة فى الإنسان، وإنما خاطب البنية الإنسانية كلها بخصائصها المادية والروحية، وخاطب ما يناسب كل ما فيها من مادة وروح. لذلك إذا أردت أن تبحث فى القرآن الكريم عن البرهان العقلى فلن تفقد بغيتك منه، وإذا بحثت فيه عن مخاطبة القلب والوجدان وجدته؛ لأن وسائل الإقناع والاقتناع فى بنية الإنسان متنوعة ومتعددة وتختلف قوة وضعفًا من شخص إلى آخر، كما أنها تختلف فى الشخص الواحد من وقت إلى وقت آخر حسب ظروفه النفسية وأحواله الثقافية والاجتماعية. ومن تمام فضل الله على الإنسان أن تعدد هذه الملكات المعرفية وتنوعها لا يعنى أنها متعارضة أو يناقض بعضها بعضًا، ولا يلغى أحداها الأخرى. لا. إنها ليست كذلك، وإذا أحسن المرء توظيفها فإنها لا تؤدى إلى أى لون من ألوان التعارض أبدًا؛ لأنها خلقت فى الإنسان لتتكامل، وتتعاون، ويعضد بعضها بعضًا فى تأسيس اليقين وبعث الاطمئنان القلبى والأمان النفسى والاقتناع العقلى فى الإنسان، على مستوى الشخص الواحد، وعلى مستوى الجماعة أيضًا، ولعل ذلك التعدد والتنوع فى الملكات المعرفية كان سببًا فى تنوع أساليب الإقناع فى القرآن وتعدد المستويات فى الخطاب البرهانى، فهذا يناسبه مخاطبة العقل النظرى مجردًا عن عوامل التجريب والحواس، وذاك يناسبه الخطاب الوجدانى المحرك للمشاعر والأحاسيس، وآخر لا ينهض به إلا تحريك الحواس بما تشاهده من مظاهر كونية يستمد منها معارفه وتجاربه الذاتية. ومن هنا تعددت وسائل الإقناع وتنوعت فى القرآن الكريم

حسب تنوع الطبائع البشرية وتنوعها. وذلك من فضل الله ورحمته بعباده.

ولذلك كانت الآثار الفاعلة فى قلب المؤمن تختلف نتائجها من شخص إلى آخر حسب درجة الانفعال والتأثر بما يقرأ. قال صلى الله عليه وسلم: « **إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضاً فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِىَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِى دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِى اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْساً وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ** »[1].

وقد اشتمل الخطاب القرآنى على ألوان من التكاليف المتعلقة بحياة المؤمن الشاملة لحياته الخاصة به كشخص مسئول أمام الله عن نفسه هو، وحياته داخل أسرته سواء أكان أبًا أو زوجًا أو ابنًا أو أخًا، كما شملت حياته داخل مجتمعه سواء كان حاكمًا أو محكومًا، وبالإضافة إلى ذلك كله فقد كلفه الله تعالى بحراسة هذا الكون واعتبره مسئولاً عنه وأمينًا عليه وخليفة فيه، وطلب منه أن يحسن أداء هذه الوظيفة الكونية التى جعله أمينًا عليها، فلا يعبث بالكون وما فيه، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ** ﴾ (البقرة: 60)، ﴿ **وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا** ﴾ (الأعراف: 56) وتوعده بالعقاب والعذاب إن هو خان الأمانة أو قصر فى أدائها. قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾** ﴾ (الشعراء: 151 ـ 152). والفساد الذى نهى عنه القرآن هنا ليس قاصرًا على

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم.

الفساد الأخلاقى فى السلوك الإنسانى تجاه الكون. لا. إنه شامل لكل ألوان الفساد المترتب على المواقف السلبية للإنسان التى يترتب عليها ظهور الفساد فى الأرض ووقوعه فيها، ولم يعمل الإنسان على منعه ومعارضته، ووقاية الكون من شروره؛ لأن المواقف السلبية من ظواهر الفساد ومظاهره هى مشاركة إيجابية فى وقوع الفساد وظهوره.

والإسلام لا يعرف للمواقف السلبية مكانًا فى منهاجه إلا لوم صاحبها ومساءلته عنها أمام الله يوم القيامة؛ لأن الآثار السيئة لتلك المواقف السلبية سوف ينعكس أثرها السيئ على المجتمع كله أفراد وجماعات، ولن ينجو منها أحد. ولذلك نجد الرسول ﷺ يجعل مصلحة المجتمع المسلم وحفظه من الفساد والإفساد أمانة فى عنق كل مسلم، والمؤمن مكلف بأن يكون حارسًا أمينًا عليها قدر استطاعته، وبيَّن أن إهمال المسلم لأداء هذه الأمانة سوف يؤدى بالمجتمع كله إلى الانهيار والضياع، قال صلى الله عليه وسلم: « **مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِى أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِى نَصِيبِنَا خَرْقاً، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعاً، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعاً** »[1].

ولقد حذرنا القرآن الكريم من سوء العاقبة التى تحل بالمجتمع إذا تكاسل فيه الأفراد عن أداء هذه الأمانة. قال تعالى: ﴿ **وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً** ﴾ (الأنفال: 25). وقد خرج الصديق يومًا ما فسمع

(1) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الشركة حديث رقم 2493.

بعض الصحابة يفسرون الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة: 105). على غير وجهها الصحيح، وبما يفيد عدم مسئولية الإنسان عن المجتمع وما يقع فيه من فساد أو إفساد، فقال لهم رضى الله عنه: أنتم تحملون هذه الآية على غير وجهها. قولوها ما قبلت منكم فإن ردت عليكم فعليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. ذلك أن البعض يحاول أن يعتذر عن عدم تحمله للمسئولية الاجتماعية بتفسيره هذه الآية ويحملها على غير معناها. ليقول للناس: إن كل إنسان مسئول عن نفسه وفقط: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ فرفض الصديق ذلك وبين أن كل مسلم هو مسئول بمقتضى إسلامه عن إصلاح مجتمعه حسب استطاعته وحسب قدرته على التأثير. قال صلى الله عليه وسلم: « **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ؛ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ** »[1].

المسئولية الجماعية

ومن يقرأ تاريخ الأمة الإسلامية فى عصورها المتأخرة، ويتعرف على علاقة الفرد بالمجتمع سلبًا وإيجابًا تأثيرًا وتأثرًا. يلاحظ أن اهتمام المسلمين بالمسئولية الفردية الشخصية كان أكثر من اهتمامهم بالمسئولية الجماعية التى هى العمود الفقرى لبناء المجتمع وقطب الرحى فى تشكيل الوجدان الجماعى للأمة، ومركز الإحساس بمصلحة الأمة حاضرًا ومستقبلاً. فتكلم الفقهاء كثيرًا عن الفرض العينى وأهميته وخطورة إهماله أو التفريط فى أدائه والعقاب الذى يستحقه كل من فرط فى القيام به أو تكاسل فى أدائه؛

(1) أخرجه مسلم فى صحيحه – كتاب الإيمان.

لأن النصوص الصحيحة الصريحة قد أنذرت كل من يهمل فى أداء هذه الواجبات العينية على أحسن وجه بالعذاب الشديد يوم القيامة. ومن يقرأ القرآن الكريم يجد فيه الآيات الكثيرة التى تتوعد تارك الصلاة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ﴾ (الماعون: 4 - 5)، وكذلك بالنسبة لتارك الزكاة، ومن لم يؤد حقه الفقراء فيها قالوا: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝ ﴾ (المدثر: 42 ـ 43). وهكذا كان الأمر بالنسبة لبقية الأركان مثل الصيام والحج، وقد فصلت السنة النبوية فى الأحاديث الصحيحة جزاء كل من أهمل فى القيام بهذه الواجبات.

كما فصلت كتب الفقه الإسلامى ذلك تفصيلاً شمل المذاهب الفقهية المعروفة لدى عامة المسلمين وخاصتهم. وربما كان من أسباب ذلك الاهتمام أن هذه الفروض العينية يتعلق معظمها بعلاقة العبد بالله وأوامره ونواهيه التى جاءت فى القرآن الكريم فى صيغة صريحة بالأمر والنهى. مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (البقرة: 43) ومثل: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران: 97) ومثل: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: 183).

فإن هذه الآيات وما جاء فى القرآن الكريم على شاكلتها فى صيغة الأمر الصريح والنهى الصريح لفت نظر المسلمين إلى الاهتمام بها حتى لا يتعرض المهمل أو المفرط لعقاب الله الذى توعده به يوم القيامة، وكذلك الأمر فيما يتصل بالسنة النبوية المشرفة، فقد جاء فيها كثير من النصوص الصحيحة والصريحة التى تأمر المسلمين بهذه العبادات الشخصية التى

أطلق عليها الفقهاء مصطلح "فرض عين" على كل مسلم. فاهتم الفقهاء بها اهتمامًا كبيرًا حتى أنهم تحدثوا فى أدق التفصيلات الجزئية المتعلقة بها وبشروط صحتها. فتكلموا عن الصلاة وشروط صحتها من الطهارة فى الملبس والمكان وطهارة الجسم من الحدثين الأصغر والأكبر، وفعلوا مثل ذلك فى شروط صحة الصيام وشروط صحة الحج والزكاة وأنصبتها، وبينوا عوامل الخلل التى تؤدى إلى إبطال هذه الفروض وعدم صحتها. كل ذلك يبين لنا سبب الاهتمام الكبير الذى أولاه الفقهاء للفرض العينى وأهميته فى تحديد علاقة المسلم بربه طاعة أو معصية.

ومن المعلوم أن هذه الفروض لم تشرع إلا فى القرآن المدنى وبعد هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، ما عدا فريضة الصلاة فإنها هى وحدها التى فرضت ليلة الإسراء والمعراج قبل الهجرة، كما صحت بذلك الروايات، وعليه جمهور الأمة، ولقد استغرق الحديث عن الفرض العينى من الفقهاء والمحدثين جهدًا كبيرًا بحيث شغلهم عن الاهتمام بفروض الكفايات التى تتعلق بمصلحة الأمة ككل، فلم يلق منهم هذا اللون من العبادات نفس الاهتمام الذى وجدناه عندهم فى الحديث عن الفرض العينى ولا قريبًا منه.

وقد يكون من دواعى الاهتمام بالفرض العينى أن الحديث عن جزاء من يهمل القيام به ويحسن أدائه قد جاء الإنذار به صريحًا فى القرآن الكريم باعتباره مسئولية فردية. فنحن نقرأ كثيرًا من الآيات الكريمة التى تتوعد من لا يؤدى هذه الفرائض العينية فى أوقاتها التى نصبها الشارع ودل عليها بكثير الآيات بخلاف فرض الكفاية الذى جاء حديث القرآن الكريم عنه مجملاً، وبالتالى كان حديث القرآن عن عقاب من لا يقوم به ويؤديه مجملاً فلم يلتفت إليه المسلمون ولم يعيروه اهتمامًا كبيرًا كما فعلوا ذلك مع الفرض العينى.

ومع تأخر الزمن عن عصر النبوة وتقادم الأيام وظهور المشكلات التاريخية التى عاشها المسلمون ابتداءً من القرن السادس الهجرى أخذ الاهتمام بهذا النوع من الفروض يتضاءل، بل يكاد يتلاشى الحديث عنه، فى الوقت الذى زاد اهتمام المسلمين فيه بالفرض العينى والمسئولية الفردية، وغاب تمامًا أو كاد الاهتمام بالشأن العام للأمة والمجتمع، وبدا الأمر كما لو أن مصلحة الجماعة وهموم الأمة ليس لها من يرعاها إلا ولى الأمر (السلطان/ الخليفة/ الملك / رئيس الجمهورية).

واختزلت المسئولية الشرعية للأفراد فى همومهم الخاصة وشئونهم الفردية فقط. أما الشأن العام للمجتمع وهمومه فلم يعد للأفراد اهتمام به، وكأنها لا تعنيهم فى شيء، وظهر فى المجتمع الإسلامى نوع السلبية واللامبالاة بشئون الدولة والمجتمع عمومًا، وأصبح الشأن العام للأمة أشبه بالتركة الموروثة لولى الأمر يتصرف فيها كيف يشاء.

ومع مرور الزمن وتقادم العهود ترسخت هذه السلبية بل تجذرت فى صفوف الأمة، وصاحبها نوع من الأثرة، أو ما يسمى بالدكتاتورية التى اعتبرها ولى الأمر حقًا موروثًا ومشروعًا له، وأصبح الأمر كما لو كان هناك حدود فاصلة أو خطوط حمراء لا يجوز للأفراد تجاوزها، وهى الحديث أو إبداء الرأى فى الشأن العام للأمة، وأصبحت هذه القضية (الاهتمام بالشأن العام) من المحرمات التى لا يجوز الاقتراب منها أو محاولة إصلاح ما فسد منها تحت شعار أن الشأن العام من اختصاص ولى الأمر فقط.

وصاحب ذلك العزوف والإهمال لهذه العبادات الكفائية، أن اهتمام العلماء والفقهاء أصبح موجهًا إلى مجموعة من العلوم المتعلقة بالفرض

العينى تأسيسًا أو شرحًا وتفصيلاً، بل وتحشية وتهميشًا مما أثقل هذه النوعية من العلوم بالافتراضات النظرية التى تدخل فى دائرة الإمكان إذا وقعت ماذا يفعل بها المسلم، وكيف يستخرج الحلول الشرعية لهذه المشكلات، وهذا أمر يذكر فيشكر لأجله العلماء والفقهاء؛ لأنه يدل على رعايتهم واهتمامهم بضبط حياة المسلم بضوابطها الشرعية فى سلوكه العام، وفى حياته الخاصة، لكنهم لم ينتبهوا إلى فروض الكفايات وأهميتها الكبرى فى النهوض بالمجتمع، وفى علاج مشكلاته المتجددة يومًا بعد يوم، ولذلك وجدنا تراثنا الفقهى فى أبواب العبادات والمعاملات ثريًا وعلى قدر كبير من السخاء والعطاء العلمى الفذ. وعلى عكس ذلك تمامًا فإننا لا نجد بين أيدينا إلا ما ندر من التراث الفقهى المتعلق بفروض الكفايات وأهميتها وخطورة إهمالها على كيان المجتمع وبنائه السليم.

وإذا كان هناك شيء من ذلك، فإنه من باب الملحقات بفروض الأعيان كحديثهم عن صلاة الجنازة مثلاً، والسياسة الشرعية فى تنصيب الخليفة أو عزله ... الخ. وهذا قد شكل همًا أكبر أمام الباحثين المعاصرين فى تحديد المسئولية الشرعية والاجتماعية عن إهمال هذه العبادات، وقد يجد الباحث صعوبة شديدة فى الحصول على آراء أو نظريات أو فتاوى تتصل بعقوبة الإهمال فى فروض الكفايات على نفس القدر أو قريبًا منه، كما وجدنا ذلك بخصوص الفرض العينى، ولم نعثر فى تراثنا الفقهى ـ إلا نادرًا ـ على مؤلفات ومصادر تفصل لنا القول فى ذلك، وتفسر لنا لماذا زهدت الأمة فى ممارسة فروض الكفاية؟ وما سبب عزوفها عنه وعدم اهتمام العلماء به؟ وهذا يلفت نظرنا إلى ضرورة طرح السؤال: هل القرآن الكريم أو السنة النبوية أهملت هذا الجانب من العبادات؟ ألم يحذر القرآن الكريم الأمة كلها

مـن عواقـب إهمالـه: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال: 25). بل إن القرآن الكريم ذاخر بالحديث عن مصلحة الجماعة وضرورة الاهتمام بها، وكذلك السنة النبوية باعتبار أن ذلك من فروض الكفايات التى قد يتعين القيام بها ويتعين أداؤها على أشخاص بعينهم، وينتقل الأمر من مستوى فرض الكفاية إلى مستوى فرض العين، ويصبح الشخص المعين هو المسئول أمام الله عن أدائه أو إهماله أو التفريط فيه.

وأهل الذكر فى هذا الشأن يعلمون ذلك جيدًا .. وأعود إلى السؤال السابق بسؤال آخر: إذا كان الكتاب والسنة قد أشارا إلى فروض الكفايات باعتبارها عبادة لله مطلوبة كفرض العين، فلماذا غفل عنها المسلمون؟ ولماذا سكت العلماء عن تنبيه الأمة إلى أهميتها ودورها فى حفظ كيان المجتمع المسلم والنهوض به؟

* * *

وتتنوع فروض الكفايات حسب أهميتها فى بناء الأمة وأثرها فى قيام النهضة والحضارة الإسلامية وعلاقتها بالمجتمع أو الأفراد، فإن من فروض الكفايات التى أشار إليها القرآن والسنة ما يجد المرء فى نفسه دافعًا إلى القيام بحكم العامل النفسى الذى يحسه المرء نحو هذا الفرض بعينه دون غيره، مثل صلاة الجنازة والسير فى الجنازات، فإن ذلك الأمر يجد المسلم فى داخله الدافع النفسى للقيام به أو ببعضه إيمانًا منه أن الموت حق على رقاب العباد، وأنه يومًا ما ملاقيه، ويجب عليه أن يبادر بالمشاركة حتى إذا ما حان وقت رحيله يكون هناك من يقوم له بنفس الفرض الكفائى.

ولكن هناك فروضًا كفائية تحمل فى طابعها نوعًا من المشقة والجهد

البدنى الذى يحتاج إلى عزيمة قوية وإرادة صادقة فى النهوض بها، وقد يكون هذا الفرض لا تعود نتائجه إلى الشخص نفسه بشكل مباشر، أو تكون نتائجه غير عاجلة بحيث لا يجنى المرء ثمرته حال حياته. فقد تكون ثمرتها آجلة للأجيال القادمة، مثل فريضة الجهاد، أو ممارسة العلم والبحوث العلمية، أو سد الثغور، فإن هذا النوع من الأعمال تجد النفس عزوفًا عنه وزهدًا فيه، كما يحتاج فى تحصيله من بذل المشقة والجهد وأحيانًا بذل المال والجهد معًا، وأحيانًا معارضات الأعراف الاجتماعية؛ ولهذا تجد النفس فى ممارستها لهذه الأنواع من العبادات من عوامل العزوف والانصراف أكثر مما تجد من عوامل الرغبة فى النهوض بها. وهنا تكمن المشكلة التى تعيشها أمتنا فى عصرها الراهن. ماذا يكون حال الأمة إذا انصرف الجميع عن أداء هذا الفرض الدينى الذى هو فى صميمه واجب وطنى أيضًا؟ بدعوى أنه ليس من قبيل الفرض العينى. أو أن غيرى سوف ينهض به، أو دعوى عدم الاستطاعة، أو أن ذلك شيء لا يخصنى .. أو غير ذلك من أساليب الاعتذار عن المواقف السلبية التى يعيشها المجتمع المسلم تجاه قضاياه وشئونه العامة .. وعلى سبيل المثال فإن حياة المجتمع وإدارة شئونه ترتبط بما يحصل عليه المجتمع من إنتاج اقتصادى يتمثل فى (الزراعة، التجارة، الصناعة). وهذه الموارد الثلاثة هى عصب الاقتصاد لكل مجتمع .. وهى أركان البناء الاجتماعى الذى يتفرع عنه ويتأسس عليه كثير من مقومات الحياة للأفراد والجماعات. وكل ركن منها يحتاج إلى متخصصين، يحتاج إلى خبراء على مستوى القانون والتنظير، وعلى مستوى العلم والتطبيق. والنهوض بهذه المسئولية من باب الضروريات فى نظر الشارع؛ لأنه يتعلق بها تحقيق مقاصد الشريعة من: حفظ النفس، وحفظ المال، وحفظ العقل، وحفظ الدين،

وحفظ العرض. وما لم تنهض الأمة بهذه الأركان الضرورية لإقامة المجتمع فلن تحقق هذه المقاصد الشرعية حيث لا يكون هناك ما تتقوم به الحياة، فلا طعام ولا مال ولا إنتاج صناعى، ولذلك فإن النهوض بهذه الأركان مسئولية المجتمع كله أفرادًا وجماعات، وتنتقل من المجتمع بالتفويض إلى ولى الأمر. ملكًا كان أو سلطانًا أو رئيس جمهورية، وتصبح الفريضة فى حقه من قبيل فرض العين وليس فرض الكفاية ... ولعل القاعدة الأصولية التى تستمد منها هذه الأركان شرعيتها أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لعل ما سبق يقودنا إلى القول بأن الحفاظ على مصادر الثروة مقصد شرعى (الماء، الهواء، الأرض، الطاقة، كما أن مصادر الاقتصاد (الزراعة، التجارة، الصناعة) هى التى تنهض بالمجتمع كى يحافظ على هذه المقاصد الشرعية؛ لأنه لا طعام بدون زرع نحصد منه الثمرة، ولا مال بدون تجارة تتمثل فى البيع والشراء، ولا نهضة بلا صناعة تسد حاجات المجتمع، وتكفيه عن طلب المساعدة من الآخرين. وهذه المصادر الثلاثة للاقتصاد تتجسد مادتها الأولية فى الكون الطبيعى (الأرض، الماء، الهواء، النار) وهذه العناصر الأربعة التى تناولها العلماء والفلاسفة قديمًا وحديثًا باعتبارها أصل الكون ومصدرًا طبيعيًا لكل ما فى الكون، لكل ما على الأرض، وكل ما فى الأرض.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ ﴾(يس: 36).

وقال سبحانه:﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ ﴾ (الأنبياء: 30).

وقال: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ ﴾ (النبأ: 6 – 7).

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (المرسلات: 25-27).

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الحجر: 22).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ ﴾ (الأعراف: 57).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (الفرقان: 48).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام: 141).

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الواقعة: 71 -73).

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (يس: 80).

وهذه العناصر الأربعة هى مكونات عالم الشهادة، هى عناصر البيئة التى يعيشها الإنسان فى صباحه ومسائه. وهى التى دار حديث القرآن عنها وكان تذكيره للإنسان بها لافتًا الانتباه إلى ضرورة الاهتمام بها والحفاظ

عليها، بل ورد الأمر الإلهى أن يجعل الإنسان منها مادة للتأمل العقلى وللنظر العلمى، أن يجعلها الإنسان مادة بحثه ودرسه ليكتشف قوانينها، ويتعرف على سنن الله فيها ليجنى منها ثمرة علمه ودرسه وبحثه، وينعم بخيرات الله فيها تحقيقًا لوظيفة الاستخلاف والتعمير وإفادة من قانون التسخير. والسؤال المطروح من هو المكلف بالقيام بهذه الوظيفة وأداء هذه العبادة. هل هم عوام الناس.

هل هم العلماء وأهل الذكر؟

هل هو ولى الأمر بصفته الوظيفية؟

ومن الذى يتحمل المسئولية الاجتماعية عن الآثار السيئة المترتبة على إهمال هذه الفريضة؟

حديث القرآن عن عالم الشهادة

مما تجدر الإشارة إليه كثرة الإشارات الواردة فى القرآن الكريم إلى عالم الشهادة إذا قورنت بحديث القرآن عن عالم الغيب، فحين تقرأ إشارات القرآن إلى عالم الغيب تجدها مجملة محفوفة بالمحاذير، بينما تجد حديثه عن عالم الشهادة مفصلاً شاملاً لدقائق هذا الكون، ذاكرًا لأنواعه ومفرداته العلوى منها والسفلى، ولعل فى هذا دليلاً علميًا وبرهانًا عقليًا على أن هذا القرآن الكريم يستحيل أن يكون من تأليف البشر أو من صنع محمد ﷺ، وذلك لعمق هذه الإشارات القرآنية ودقتها وكثرتها التى نبه بها المسلمين إلى ضرورة النظر فى عالم الشهادة وتأمل ما فيه من بديع الصنع ودقة الصنعة.

فمن أين لرجل أمى لا يقرأ ولا يكتب مثل محمد ﷺ أن يعلم أو يتعلم هذه الإشارات الكونية؟

من أين لرجل مثل محمد ﷺ أن يعلم شيئًا عن مواقع النجوم؟

من أين له العلم بوضع الأجنة فى أرحام الأمهات؟

من أين له العلم بالسموات السبع والأرضين السبع؟

من أين له العلم بحركة النجوم ومجرى الشمس والقمر؟

من أين له العلم بأن الشمس تجرى لمستقر لها؟ فلقد نشأ صلى الله عليه وسلم فى بيئة صحراوية بدوية، ليس لها حظ من هذه العلوم، وليس بها من العلماء من شغلته هذه الإشارات.

بيئة ليس بها مدارس علمية ولا جامعات، ولم يكن بها عالم فيزياء

ولا كيميائى ولا عالم بالفلك. فكيف ومن أين لرجل نشأ فى هذه البادية أن يتكلم بهذه الإشارات التى لم يكتشف بعضها إلى الآن؟

لقد كانت هذه الإشارات بما فيها من دقة وإحكام برهانًا على أن القرآن الكريم وحى الله إلى نبيه وليس من صنع البشر. وأنه لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كبيراً، وسوف نتابع حديث القرآن عن عالم الشهادة بشيء من التفصيل؛ ليقف القارئ الكريم على مدى اهتمام القرآن بعالم الشهادة وإعلائه من شأنه، ويتعرف على مواقع هذه الآيات الكونية ودورها فى تأسيس اليقين لدى العلماء، ونوقن أن القرآن الكريم أمرنا بأن نجعلها تحت عيوننا موضع بحث علمى وتدبر عقلى؛ لأن دورها فى تأسيس العقيدة لا يقل أبدًا عن دور آيات الله المقروءة فى كتابه الكريم، وسوف نعرض حديث القرآن عن عالم الشهادة حسب مستوياتها الوجودية، ولنبدأ بحديث القرآن عن بدايات الخلق:

عالم الخلق :

وأعنى به قصة بدء الخلق من العدم، ولماذا أمرنا الله بالنظر والتأمل؟ كيف بدأ الله الخلق؟ ومما كان الخلق؟ ومتى كان الخلق؟ وكيف كان؟ ولا شك أنه قد استقر فى يقين كل مسلم أن الأمر الإلهى بذلك النظر ليس عبثًا لا حكمة لله فيه ولا غاية له منه، وحاشا لله أن يكون أمره كذلك بلا حكمة ولا غاية، ولقد تكرر فى القرآن الأمر بالنظر كيف بدأ الله الخلق. جاء الأمر بذلك فى قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت: 20)، وجاء فى صيغة الاستفهام الإنكارى الذى يتضمن ألوان العتاب واللوم لعدم قيامهم بتنفيذ هذا الأمر الإلهى، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ

فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ (العنكبوت: 20).

ومعلوم أن النظر المأمور به هنا ليس نظرًا حسيًا تقوم به حاسة البصر، فتلك وظيفة حسية قد يقوم بها الإنسان العادى، ولكن لا يتحقق منها الهدف، ولا تؤدى إلى الغاية المطلوبة، كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ (الأعراف: 198)، ولكن المطلوب هنا البصر العقلى، المطلوب هنا شهود العقل، وليس شهود الحواس فقط، المطلوب هنا نظر العالم المتخصص، إنها قراءة عقلية وليس النظر الحسى، قراءة تفسر بها كيف بدأ الله الخلق، ومما كان الخلق؟ وهذه الأسئلة المطروحة هنا ليست من وظيفة حاسة البصر؛ لأن الغرض هنا هو تأمل القضية بنور العقل وعين البصيرة، ولذلك يجب على صاحبها أن يشمر عن ساعد الجد، وأن يبذل الجهد فى تقصى الحقائق التى قد تقترب به من الإجابة على هذه الأسئلة. إنها أسئلة علمية تحتاج من العالم أن يبحث ويجرب ويصيب أحيانًا ويخطئ أحيانًا. إنها دعوة قرآنية إلى تحصيل العلم بأوسع معانيه.

ثم نجد القرآن الكريم يشير إلى مرحلة وجودية أخرى من مراحل الخلق ويطرحها على العقل، ويضع أمامه هذه البداية العملية للخلق وللوجود كله ليقرأ ويتساءل ويبحث ويجرب ويفترض الإجابات التى قد يصيب فى بعضها ويخطئ فى الأخرى. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنبياء: 30-33)

فيتساءل العلماء ما هو الرتق؟ وكيف كان الفتق؟ وهل هو الانفجار الكبير الذى تحدثنا عنه النظريات العلمية الحديثة أم هو شيء أكبر وأكبر مما يتصوره العقل؟ وهل القضية قابلة للبحث العلمى فيتساءل حولها أم لا ولو على سبيل الفرض العلمى القابل للتجربة؟

ثم يحدثنا القرآن الكريم عن مرحلة ثالثة من مراحل الخلق فى سورة فصلت فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝١٢ ﴾ (فصلت: 9-11).

ثم يتناول القرآن الكريم السماء منفردة بالحديث؛ ليذكرنا ببعض من آياتها الناطقة بعظمة الخالق حفظًا وتدبيرًا، ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات: 71).

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢ ﴾ (الأنبياء: 32).

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١ ﴾ (الفرقان: 61).

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥ ﴾ (يوسف: 105).

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ

أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (فاطر: 41).

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ ﴾ (البروج: 1).

﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ ﴾ (الذاريات: 7). الخ هذه الأوصاف التى ذكرها القرآن للسماء والتى تجعل الناظر فى دهشة وحيرة، وتنتقل من مشهد إلى مشهد، ومن حقيقة علمية إلى أخرى، تستدعى كل ملكات الإنسان المعرفية لتؤدى وظيفتها نظرًا وتأملاً وتساؤلاً، إنها مجموعة التساؤلات التى تستدعى عين البصيرة قبل عين البصر، وتستدعى شهود العقل قبل شهود الحواس، العين ترى والعقل يجمع بين المرئى ودلالته على غير المرئى، فالمرئى بالعين مشهود بالحواس، وغير المرئى مشهود بالعقل، والجمع بين المرئى وغير المرئى هو الهدف المقصود من ختم كل هذه الآيات الكونية بهذه الخاتمة التى تحمل معنى الإنذار والتهديد ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٧ ﴾ (يونس: 67)، ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ ﴾ (الرعد: 3). ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣ ﴾ (النحل: 3) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧ ﴾ (سورة ق:37)، ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ (إبراهيم: 25)، فالرؤية والسماع من عمل الحواس، والتعقل والتذكر والإيمان من عمل العقل والقلب والوجدان.

وهذه إحدى الخصائص التى تميز بها الخطاب القرآنى، إنه يخاطب البنية الإنسانية كلها، وليس بعضًا منها كما هو شان المدارس الفلسفية أو المذاهب الدينية الأخرى، إنه يخاطب الإنسان الجامع بين المادة الطينية وخصائصها والنفخة الإلهية ولوازمها، ويمكن القول بشيء من الاطمئنان إن القرآن يركز فى خطابه على ملكات الإنسان الباطنية فى بناء يقينه المعرفى

أكثر من الحواس الظاهرة؛ لأن هذه الملكات الباطنية هى التى تميزه وترتفع به عن مستوى الإدراك الحسى الذى تشاركه فيه جميع الحيوانات التى تسمع وتبصر، ولذلك نجد القرآن الكريم يتوعد بالعذاب أولئك الذين أنعم الله عليهم بهذه الملكات الباطنية ولم يحسنوا توظيفها فى الإدراك وتأسيس اليقين، قال تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ (الأعراف: 179).

لأن المقصود من الأسئلة التى تطرحها هذه الآيات ليس إقناع الحواس بوجود المادة أو تفاعلها فى تشكيل هذه الأجرام، وإنما المقصود تأسيس يقين المسلم على الاعتقاد الجازم بما تمليه روح هذه الآيات من وجود الخالق وصفاته. وهذه تتطلب حضور كل ملكات الإنسان المعرفية الظاهر منها والباطن، ما عرفناه منها وما لم نعرفه لتسهم كلها فى بناء اليقين لدى المسلم.

ومن هنا نفهم السر فى صفة الشمول فى منهج الخطاب القرآنى، إنه لا يخاطب الحواس فقط ولا يخطاب العقل فقط، وإنما يتوجه فى خطابه إلى كل وسائل الإدراك المعرفية فى بنية الإنسان، العقل والقلب والوجدان والحواس، إنه ينقل الإنسان من مستوى الإدراك الحسى الذى تتمتع به الحيوانات إلى مستوى آخر أرقى وأرقى، إنه ينقله إلى مستوى معرفى أرحب وأوسع، يجمع فيه بين شهود الحواس وشهود العقل واطمئنان القلب، فالعين ترى، والأذن تسمع، والعقل يجمع بين شتات هذه الجزئيات المحسوسة فى نسق معرفى جامع، ينتقل فيه من المسموع المشهود بحاسة السمع إلى ما يدل عليه من غير المسموع، وينتقل من المرئى بالعين إلى ما وراء المرئى، وبعبارة جامعة ينتقل فيه من المحسوسات إلى ما تدل عليه هذه المحسوسات مما يشهده العقل ولا

تشهده الحواس، مما هو حاضر ومشهود للعقل والقلب والوجدان، ولكنه غير مشهود للحواس ولا يخضع لسلطانها، إنه انتقال من الجزئيات المتناثرة إلى الكليات الجامعة والمؤسسة للبرهان اليقينى.

وفى حديث القرآن عن السماء والأرض نجد ربطًا عجيبًا بين وظائف كل منهما ودوره فى الوجود، وما يقترن بكل منهما فى الحديث عن زينة السموات بالكواكب والنجوم، والأرض بالنبات والفراش الأخضر الجميل، والماء النازل من السماء لينبت به الزرع فى الأرض لتصبح الأرض به مخضرة. ويلفت القرآن الانتباه إلى وجوب النظر إلى ذلك، فالسماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذى يجب أن يقره العقل من حسن الخلق وحكمة الخالق ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ ﴾ (سورة ق: 6)، والأرض صفحة أخرى من كتاب الكون ليقرأ فيها العقل ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾ (سورة ق: 7)، وبين قراءة العقل لهاتين الصفحتين من كتاب الكون يسوق القرآن هذا المقصد النبيل وتلك الغاية المطلوبة من هذه القراءة إنها ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ ﴾ (سورة ق: 8)، ليجمع القرآن فى خطابه بين الشهود الحسى لما فى السماء والأرض، والشهود العقلى لهذه الآيات الكونية، فيجعل المسلم منها موضوعًا جديدًا للبحث العلمى والتفصيلات الجزئية التى ينشدها هذا العالم ليؤسس منها مستقبله المأمول، نهوضًا بالأمة، وارتقاء بالمجتمع. إن الغرض من سوق هذه الآيات ليس قاصرًا على مجرد التعبد بتلاوتها فقط، وإنما ليجعل المسلم منها موضوعًا للعلم والتجربة ليزداد الإنسان بها معرفة، والمجتمع تقدمًا ونهوضًا.

إن هذه (التبصرة والذكرى) التى ينبهنا إليها القرآن الكريم فى قراءة

كتاب الكون يشترك فى قراءتها الحس والعقل والقلب، فالكون صفحة مقروءة أمام العقل والقلب معًا، فحين ينظر العقل ويتفتح القلب الواعى تنفع الذكرى وتثمر فى القلب أثرًا إيمانيًا، يجعل للحياة معنى وللوجود قيمة؛ لأنها تصل قلب الإنسان العارف بالكون الذى هو موضوع المعرفة حيث تباشر الحواس معارفها الجزئية من رؤية السماء سقفًا مرفوعًا وسقفًا محفوظًا من الخلل، ويشهد السماء مزينة بالآيات التى تبعث فى النفس البهجة والسرور، فالقمر (نور) فى الليل، والشمس (ضياء) فى النهار، والنجم علامات وهداية للسراة ليلاً فى البر والبحر، هذه اللوحة الرائعة يقدمها القرآن الكريم خلال مشاهد متعددة فى القرآن المكى، وفى تناسق عجيب؛ ليربط قلب المسلم بهذه المشاهدات فتنبعث فيه عوامل الإيمان واليقين، وتربط عقله بالنظر فى هذه الظواهر طلبًا لمزيد من التعرف عليها؛ لتصل بين الإنسان وهذه الظواهر فى وحدة معرفية يجمع فيها المسلم بين الذات العارفة ـ الإنسان ـ وموضوع المعرفة معًا، فالإنسان ليس غريبًا عن هذه الشواهد لأنها مسخرة لأجله، وهو مطالب بالكشف عنها وحسن الإفادة منها، ولا تستقيم حياته على الأرض إلا بذلك، ولابد له من وصل ما انقطع بينه وبينها فى الماضى حتى يواصل مسيرته، ويلحق بركب الحضارة الإنسانية، ولابد للمسلم من الصلة العلمية الوثيقة بها، فكل معرفة بنجم من النجوم، أو فلك من الأفلاك أو خاصة من خصائص الكون وما فيه يجب أن تتحول إلى موضوع للبحث العلمى يوثق صلة العقل المسلم بهذا الكون بدلاً من هذه الغربة والقطيعة العلمية بين المسلم وعالم الشهادة، والتى أصبحت ظاهرة لافتة للنظر فى واقع المسلمين.

إن هذا الكون كتاب مفتوح قابل لأن يقرأ بكل لغة، وفى ظل كل

ثقافة وحضارة، ولأهل كل دين، ويكشف عن أسراره بكل وسيلة متاحة، ويستطيع أن يقرأه ساكن الكوخ وساكن القصور، وأن يطالع مفرداته كل عاقل، مسلمًا كان أو غير مسلم؛ ليجنى الثمرة وينعم بخيراته، فيجد كل امرئ فيه زاده العلمى والإيمانى معًا، حين يطالعه بقلب مفتوح وعقل صحيح متطلع إلى الحق، كل عالم يطالعه بقدر استعداده وعلى قدر استطاعته، ولذلك فإن الآية الواحدة تحمل معها البرهان العقلى لطالب العلم واليقين الإيمانى لطالب الحق، والمنهج القرآنى يجمع بينهما فى سياق واحد، فلا ينقض البرهان العلمى اليقين الإيمانى بل يقويه ويرفده ولا ينقض اليقين الإيمانى البرهان العلمى ولا يعارضه بل يدعمه ويؤيده، ويمده بنور البصيرة ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾. إن نور البصيرة التى تساعد العقل فى الربط بين الجزئيات المتناثرة والمفردات المتنوعة فيربط بعضها ببعض، ويضم شتاتها فى وحدة متناسقة، تشير إلى وحدة المصدر ووحدة النظام الحاكم ووحدة الخالق كحقيقة كبرى، تسوق إليها هذه المقدمات الجزئية والمفردات المتنوعة على أنها الحقيقة الكبرى والمقصد والغاية، إنها تصل القلب (المتبصر) بنواميس الكون، فتذكره بالحكمة الكامنة والعناية الإلهية المبثوثة فى كل جزئياته، ما دق منها وما عظم. فهى ليست معلومات جامدة يتلقاها العقل دون أن تسرى آثارها إلى القلب، فتثير فيه عوامل الإيمان، إنها ليست معلومات جافة ميتة لا حياة فيها، إنها أشبه بالجرس الموسيقى تسمعه الأذن، فتثير فى المستمع عوامل الشجن طلبًا للمزيد ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ (سورة ق: 37).

السماء والأرض:

وحين يجمع القرآن فى حديثه بين السماء والأرض نجد أمرًا مثيرًا للانتباه، إنه يأمر بالنظر فى قوانينها الماسكة لها، لا يكتفى بالأمر بالنظر إلى السماء والأرض بل يأمرنا بالنظر إلى ما فيهما ﴿ **قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ (يونس: 101) ماذا فى السموات من آيات تتمثل فى الغلاف الجوى ومكوناته، من الجاذبية الماسكة للكواكب والمجرات، ماذا فيها من أفلاك ونجوم، ومن شموس وأقمار؟ وماذا تحمله من أسباب أودعها الله فيها لتحفظ قانون المد والجذر فى البحار والمحيطات، وتحفظ على الزرع حياته وعلى الغلاف الجوى النسب اللازمة المحددة لأداء وظيفته الكونية كمًا وكيفًا؟ كل هذا وغيره، أمر القرآن بقراءته فى هذه الآيات ﴿ **قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ ماذا فى الأرض من معادن وخيرات؟

وماذا فى تربتها من عناصر صالحة للإنبات لتكون فراشًا أخضرًا وكفاتًا للإنسان، ومهادًا له؟

كيف يتكون السحاب وينقل الماء من مكان إلى مكان؟

كيف ينزل المطر ليحيى الأرض بعد موتها؟ ما هو القانون الحاكم لهذه الظاهرة؟.. كيف ولماذا؟ ﴿ **وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾** ﴾ (فصلت: 10). وكيف جعلها مهادًا وكفاتًا؟ كيف يتكون الهواء فى الغلاف الجوى بين السماء والأرض ويتخلص من الشوائب العالقة الضارة ليكون أكسيرًا للحياة بعنصريه الصالحين لها (الأكسجين وثانى أكسيد الكربون) فيحيا الإنسان ويحيا النبات بنظام تكاملى تتكامل فيه دورة الحياة بالتبادل بين الإنسان والنبات حيث يتنفس

الإنسان الأكسجين ويطرد ثانى أكسيد الكربون ليحيا به النبات، ثم يطرد النبات الأكسجين الذى يحيا به الإنسان، مطلوب من الإنسان أن يبحث ليعرف سر هذا القانون ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ ، فليس القوت هنا قاصرًا على ما يتقوته الإنسان والحيوان من الغذاء، بل إنه شامل لكل مقومات الحياة، وعلى رأس هذه المقومات الهواء الذى يتنفسه الإنسان والحيوان، ويعيش به النبات، هذا كله وغيره مما لم تعرفه مما أشارت إليه الآية ﴿ وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾.

ومن فضل الله أن جعل هذه الآيات فى علوها وعلو شأنها طيعة خاضعة لإرادة الإنسان الباحث عنها المتسائل عما فيها الطالب لمعرفتها والتعرف عليها دون تمنع منها أو معاندة ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: 11)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ (الملك: 15). إنها إشارات إلهية تدل على انقياد هذه الآيات وخضوعها لإرادة الإنسان منها تحقيقًا لقانون التسخير الذى أمرنا القرآن بالكشف عنه بالتنقيب والبحث فى هذه الآيات وفى مفرداتها لكى تعمر بها الكون، وليس هناك من عائق إلا عجز الإنسان المسلم وعدم إرادته وخور عزيمته وكسله العقلى وحالة العزوف التى تعوقه عن اقتحام هذه الأسرار للكشف عنها كما يفعل الآخرون.

ليس هناك من آية كونية تمردت على الإنسان وأعلنت عصيانها له، ولم تفصح له عن أسرارها حين يجدُّ فى البحث فيها طلبًا لها وكشفًا عنها، لكنها لا تجود عليه بالعطاء بغير بحث منه أو بدون سعى لتحصيلها؛ لأن الكسالى ليسوا مؤهلين لنيل هذه الدرجة وإن كانوا من أتقى عباد الله، فليس من الصواب أن يدعوا الإيمان ويجعلوا من إيمانهم بديلاً عن تحصيل هذه

العلوم أو الاستفادة منها؛ لأن البحث فيها والبحث عنها من علامات الإيمان، وليس من الحكمة أن يجعل المسلمون اهتمامهم بالعبادات والشعائر الدينية بديلاً عن تحصيل العلم بمفاتيح الحضارة الإسلامية من العلوم الكونية التى نبهنا إليها القرآن الكريم وأمرنا بتحصيلها.

ثم تشير الآيات إلى حقيقة كونية كبرى تضعها أمام العقل ليتعرف عليها وعلى كنهها وكيفتها ودورها فى انتظام حركة الفلك بل فى حركة الوجود كله. قال تعالى: ﴿ **وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا** ﴾ (فصلت: 12). ما هو هذا الأمر الإلهى الموحى به، ما كنهه؟ ما كيفيته؟ ما وظيفته؟ ما علاقته بقول تعالى: ﴿ **۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ** ﴾ (فاطر: 41)، ما علاقته بقوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ (الأنبياء: 32)، ما علاقة هذا الأمر بقوله تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ (يوسف: 105).

ما هو دور عالم الفلك المسلم هنا وما مهمته؟ وهل المطلوب هنا معرفة هذا الأمر دون معرفة وظيفته الكونية فى الحفظ والتدبر؟ أليست الآية هنا تخاطب القلب قبل أن تخاطب العقل؟ أليست الآية جامعة فى خطابها بين برهان العقل ويقين القلب؟ أليس البرهان العقلى هنا يؤيد اليقين الإيمانى؟ أليس اليقين الإيمانى هنا مؤسسًا على البرهان العقلى؟

ألا يستدعى ذلك من العلماء أن يمزجوا فى درسهم العقدى بين العطاء القرآنى وعطاء العلم الكونى؟ ليجمعوا فى خطابهم لطلبة العلم بين منطق البرهان ويقين الإيمان.

وفى مشهد كونى آخر يشير القرآن الكريم إلى آية الشمس والقمر وعلاقتهما بالليل والنهار، ودورهما فى انتظام حركة الفلك ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يس: 37 ـ 38).

وعظمة هذه الآية تتجلى فى ذلك التصوير اللافت للانتباه والمثير للتأمل، فالليل نسلخ منه النهار، فكأن الليل متلبس بالنهار، والنهار ملتبس بالليل، فينسلخ النهار من الليل، فإذا بالظلمة تمحو ضوء النهار، وذلك لدوران الأرض حول الشمس ودوران الشمس حول نفسها، فهى تجرى لمستقر لها لا يعلمه إلا الله.

ثم تشير الآية إلى القمر ومنازله التى يتنقل بينها حتى يصبح كالعرجون القديم فى أول الشهر وفى آخره، حيث يولد القمر هلالاً، ثم ينمو وينمو حتى يصبح بدرًا متكاملاً، ثم يبدأ يتناقص شيئًا فشيئًا ليصبح هلالاً كما كان أول الشهر فيصير كالعرجون القديم، وهذا المشهد يراه المرء مرات ومرات دون أن يثير لديه نوعًا من الدهشة التى تدعوه إلى التساؤل كيف، ولماذا؟ فيلفت القرآن الانتباه إلى التأمل والتساؤل عن عظمة هذه الآية وأهميتها فى انتظام حركة الكون ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِى لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ . ثم تشير الآية فى تناسق عجيب إلى دقة النظام الحاكم لدوران هذا الفلك وإتقان صنعته ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ

يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ حيث يدور كل نجم وفلك فى مداره الخاص به محافظًا على الأبعاد والمسافات الكائنة بينه وبين الأفلاك الأخرى، ولا يحدث خلل فى انتظام هذه الدورة الفلكية؛ لأن ذلك تقدير العزيز العليم.

هذه الآية الكبرى يضعها القرآن أمام عقل المسلم يدعوه إلى تأملها وبحث العلاقات الكونية بينها وبين الأرض وما عليها من نبات وحيوان ومظاهر الحياة بصفة عامة.

فالعالم العلوى كله بشموسه ونجومه وأقماره وسماواته يجعله القرآن موضوعًا للعلم والبحث العلمى، ويدعونا إلى هذه المائدة الشهية نتأملها ونتعرف على قوانين الله فيها خلال (علم الفضاء) أو علم الفلك باعتبار أن هذه الآيات مظهر من مظاهر القدرة الإلهية والحكمة الإلهية والعلم الإلهى وآية دالة على وجوده سبحانه.

وبالإضافة إلى ذلك فإن التعرف على قوانين الفضاء وعلوم الفلك باب من أبواب تعمير الكون وحسن توظيفه لصالح الإنسان، وهو من مقاصد القرآن وأهدافه، ولذلك فإن القرآن يسوقها للعقل الإنسانى باعتبارها آية وآيات. فينظر العقل ويتأمل ويبحث ليخرج بالبرهان ويعتقد القلب ويتأسس اليقين الإيمانى.

ويقسم القرآن الكريم بهذه الآيات الكونية إشارة إلى عظمة قدرها فى انتظام حركة الوجود وعلو مقامها عند الله على أن كتاب الله المقروء حق، وأنه من عند الله، وليس من عند البشر ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ ﴾ (الواقعة: 75 - 78)، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ

رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحاقة: 38-40).

وتأمل معى رهبة هذا القسم ومدى دلالته على المقسم عليه وعظمته، تأمل هذا الترهيب الذى تبعثه هذه الآية ﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾** ﴾ أنها تنقلك إلى عالم مجهول لا صلة لك به لتضعك فى مواجهة مباشرة أمام أسرار الغيب الذى لم يكشف عنه مع الحاضر المشهود أمامك لتدرك بعين البصر ونور البصيرة معًا إن الوجود أكبر مما ترى وأعظم مما تحس، وأن الكون أضخم مما يدركه عقلك، وتشهد حواسك، فما تبصره وما لا تبصره، وما تدركه بعقلك أهون على العقل مما لا تدركه، وما ذلك الكون المشهود لك إلا طرفًا مشهودًا يدلك على ما غاب عنك مما تجهله من هذا العالم.

إن الإشارة التى تطرحها هذه الآية ﴿ **وَمَا لَا تُبْصِرُونَ** ﴾ تفتح أمام العقل والقلب عوالم الغيب المجهول، وتنبه العقل إلى أن هناك وراء الحواس ومداركها عوالم أخرى وأسرار أخرى لا تخضع للحواس، وليست من مدركاتها. هذه الإشارة توسع الآفاق المعرفية للكون وتضعها مباشرة أمام العقل لتكون موضوعًا للبحث والتنقيب، وكم اكتشف العلماء مجرات وكواكب وشموسًا كانت مجهولة للإنسان فى الماضى، ولم يعرفها إلا فى العصور المتأخرة. فالكون إذن أرحب وآفاقه أكبر، وآياته أعظم، وهذه العظمة تتطلب من العقل ألا ينكر ما يجهله فيه ولا يتنكر لما غاب عنه من أسراره، وألا يسارع بإنكار ما لا تدركه حواسه، فالذين يحصرون أنفسهم فى المعارف الحسية فقط، ويتنكرون لما وراءها، قد حكموا على أنفسهم بالقيد الحسى المحدود، وحصروا أنفسهم فى عالم ضيق محدود إذا قيس بما لا تبصرون من العوالم اللامرئية، إنهم بذلك يغلقون على أنفسهم أبواب المعارف التى تصلهم بالحقيقة الكبرى لهذا الوجود، إن الشهود الحسى ليس بديلاً أبدًا عن الشهود

العقلى ولا الشهود العقلى بديلاً عن الحضور القلبى الذى يرى بعين البصيرة ما لا يراه العاقل بعين البصر.

إن هذه اللمحات القرآنية التى يسوقها فى هذا المشهد العقلى العجيب ﴿ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ ينقل المرء من عالم الحس والمشاهد الحسية إلى عالم الشهود القلبى، بل حين يقسم القرآن بالليل وما وسق ويتخيل المرء بعقله ما فى هذا القسم من إيحاءات سلوكية بشرية، حيث يذهب المرء متأملاً فيما لا يراه بعين البصر من أحداث ومشاعر وما يحتويه المجهول من أحاسيس وجدانية وعوالم خافية سارية فى ظلمة الليل لا يعلمها إلا الله، وما تثيره هذه الإشارة من رهبة فى النفس ﴿ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الانشقاق: 17) ووجل وخشية وسكون، ثم تأتى الإشارة إلى القمر ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾ (الانشقاق: 18) وما يثيره هذا الشهر من اكتمال البدر بعد نقصانه، ثم صيرورته إلى النقصان بعد اكتماله، هذه اللمسات الكونية الرائعة الموحية يلمسها القرآن بهذه الإشارات السريعة ليخاطب بها العقل والقلب معًا بعد إن غفل الإنسان عن التنبه إليهما ولم يلتفت إلى عظمة الخالق فيها لكثرة الإلف والتعود عليها ولغفلته الضاربة على عقله عن النظر فيها، فيقسم القرآن بها؛ ليبرزها فى صورة حية رائعة أمام العقل؛ لتوحى بدلالتها على يد القدرة الماسكة لهذا الكون من جانب، وما تشير إليه من وظائف كونية تأمر الإنسان باكتشافها من جانب آخر ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ (الانشقاق:16-19)، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

على المسلم أن يتوقف أمام هذا القسم ويتأمل ما يثيره فى النفس والعقل من مشاعر وأحاسيس، وما تثيره فى العقل من تساؤلات، وما تضعه

أمامه من علامات استفهام تحتاج إلى إجابات علمية، كل ذلك يمثل مقصدًا من مقاصد القرآن وهدفًا أسمى من حديث القرآن عن هذه الظواهر الكونية الموجودة فى عالم الأفلاك.

فى الأرض آيات:

إذا انتقلنا من عالم الأفلاك وآياته إلى عالم آخر نعيشه على الأرض نجد القرآن الكريم يفتح أمام أعيننا لوحة فنية يعرض فيها آيات الله فى الأرض وما عليها وما فيها، فيذكر الإنسان بالأرض التى جعلها الله له مهادًا، وجعلها فراشًا، وجعلها كفاتًا، وبسطها أمام عينه، وجعلها صالحة لأن يمد الإنسان يده إليها طالبًا خيرات الله التى أودعها فى باطنها، ويستنبت منها الزرع والثمار التى بها قوام حياته، ولك أن تقرأ قصار السور المكية للتعرف على هذه اللوحة الرائعة التى رسمتها هذه الآيات لتكون محلاً وموضوعًا لنظر العقل وبحوث المفكرين.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ ﴾ (النبأ: 6-8).

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحجر: 19 - 20).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى

ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الرعد: 3-4).

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الذاريات: 48-49).

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۚ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ (السجدة: 27).

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الملك: 15).

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿٦٣﴾ ﴾ (الحج: 63).

تكرر هذا المشهد فى القرآن كثيرًا، الحديث عن الأرض وكيف أعدها الله وهيأها لخدمة الإنسان وجعلها ذلولاً طوع إرادته منها إذ هو أخذ بالسنن والأسباب التى نصبها الله لذلك، وهذه اللوحة التى رسمتها هذه الآيات تتنقل بالإنسان فى أرجاء هذا الكون ليشهد هذه الآيات بأسلوب يستحث العقل على النظر والتأمل، ويحرك القلب ليزداد يقينه بعظمة الخالق.

هذه المشاهد التى تعرضها الآيات كل مشهد منها ينبئ عن غيب يدبره ويقدر له أمره، ويشير إلى ما وراءه من حسن تقدير وترتيب وحكمة تنتفى معها المصادفة، فالأرض مهاد للإنسان يجد فيها راحته من الكد والنصب، وهى فراش له بالنبات والزرع، يأكل منه وترعى ماشيته. وهذا ما جعل بعض الفلاسفة يطلق على هذا اللون من الآيات وغيرها دليل العناية الإلهية بالإنسان حيث جعل كل ما على الأرض مهيأ لخدمة الإنسان ومسخر لقضاء

مصالحه، فالنوم سبات والليل لباس والنهار معاش، وهذه المشاهد كلها تتعلق بحياة الإنسان على الأرض، وهى ظاهرة ملحوظة لكل إنسان يدركها بيسر وسهولة.

ولقد فات الإنسان الإحساس بعظمتها الكثرة تعوده عليها، وأفقدته كثرة الألفة الشعور بدلالتها وحكمة الخالق منها.

ويلفت القرآن الانتباه إلى وظيفة كونية أخرى ربما غفل عنها الإنسان، فيجعل الأرض مخزنًا للمياه الجوفية ﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ** ﴾ (المؤمنون: 18)، فالماء ينزل من السماء بقدر معلوم بلا زيادة ولا نقصان، فيسكن فى الأرض لحين الحاجة إليه، ولو شاء لجعله غورا، وإنا على ذهاب به لقادرون. ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ** ﴿٣٠﴾ ﴾ (الملك: 30)، فالذى أنزله بقدر قادر على أن يذهب به حيث يشاء.

ثم تطالعك هذه اللوحة بحقيقة يقف العقل أمامها متأملاً كيف حدثت هذه الحقيقة. ﴿ **وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ** ﴾ (الرعد: 4) فالأرض منها الصخرية الصلدة، ومنها الأرض الجدباء، ومنها الخصب الطيب بأنها قطع متجاورات، فمنها المزروع الأخضر، ومنها المهمل السبخ، ومنها الريان والعطشان هذه الإشارة إلى الأرض وأنواعها، تنقلك الآية منها إلى أنواع الزرع والثمار المختلف نوعًا ولونًا وطعمًا مع أنها كلها تنبت من الأرض مع وحدة التربة ووحدة الماء ووحدة الهواء المتنفس، لكن نفضل بعضها على بعض فى الأكل، هذه المقابلات التى طرحتها الآية

تتطلب من عالم النبات أن يبحث ويبحث عن أسرار هذا المعمل الكيميائى العجيب الذى يقوم بهذه المهمة المدهشة، والتى يعجز عنها العلم فى شتى مستوياته بل يعجز عن تفسيرها؛ لأنه يعجز أيضًا عن العلم بكيفيتها. ولذلك ختمت الآية بقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فالتربة الواحدة قد يخرج منها أصناف شتى من النبات الذى يختلف طعمًا ولونًا ورائحة، بل إنك لتعجب أن تجد النبات يمتص غذاءه السام القاتل للإنسان من التربة، فيتحول هذا الغذاء السام فى هذا المعمل الكيميائى داخل النبات إلى طعام شهى للإنسان والحيوان، وتتقوم به حيان الكائن ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ كيف تتحول المادة السامة (الأسمدة بأنواعها) داخل أعواد النبات إلى غذاء يفيد الإنسان والحيوان؟ ما نوع هذا المعمل الكيميائى الذى قام بهذه الوظيفة؛ وظيفة تحويل المادة السامة القاتلة للكائن الحى إلى غذاء صالح تتقوم به حياته.

وفى مشهد آخر يؤكد القرآن هذه الحقيقة الكونية. وحدة الماء، وحدة التربة، وحدة الهواء، ثم الزرع مختلف أكله. ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: 99). وتكرر نفس المعنى فى آيات أخرى من القرآن، لتؤكد الإشارة إلى وظيفة الماء مع التربة الصالحة للإنبات فى دورة الزرع والنبات الذى يخرج منه حبًا متراكبًا وغير متراكب، ومن النخل من طلعها قنوان دانية. والزيتون والرمان .. كل ذلك يدعو عالم النبات أن يتساءل ويبحث، كيف تكون الحبة واحد ويخرج منها سنبله بها مائة حبة؟

كيف يكون جذع النخل خشبًا صلبًا، ثم يثمر لنا غذاء متكاملاً رطبًا شهيًا فى شكل التمر؟

كيف يكون جذع الشجرة صلبًا ويخرج لنا حبة العنب مملوءة بالماء السكرى؟

ثم كيف تتكون حبة الرمان بنوعيه الحلو والحامض داخل هذا الغلاف ؟... وكيف وكيف؟

ثم تأمل معى هذه اللفتة القرآنية ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾ ليتأمل العقل بديع الصنعة وجمالها، والمشهد كله مشهد بديع رائع يحرك القلب ليتقبل معانى الإيمان، وينبه العقل ليزداد علمًا بما لم يكن يعلم ﴿ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ ﴾ فليس المطلوب هنا مجرد النظر الحسى. فكم من عين ناظرة وهى لا تبصر، ﴿ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ (الأعراف: 198). ودائمًا المطلوب هنا هو نور البصيرة ويقين القلب؛ ليجمع المسلم فى قراءته بين نور البرهان العقلى ونور الإيمان القلبى. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمۡ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

حديث القرآن عن الإنسان:

تأمل معى حديث القرآن عن خلق الإنسان وكثرة الإشارات المتكررة إلى بدء الخلق، والمصير، وكيف نبه القرآن الكريم العقل المسلم إلى دراسة القضية (قضية الخلق) كاملة، وجعلها موضوعًا للبحث العلمى والنظر العقلى ليتأسس عليها برهان العقل وبناء اليقين فى القلب.

تأمل معى هذه الآيات التى يعرضها القرآن الكريم على العقل المفكر

لتكون قضية معرفية يتناول العقل كل أبعادها بالبحث والتأمل، كيف بدأت بهذا الاستفهام الذى يستثير العقل ويحثه على العمل. ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ ﴾ (سورة ق: 6)، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠٩ ﴾ (يوسف: 109)، ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ ﴾ (العنكبوت: 20). وكيف كانت خاتمة الآيات ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (سورة ق: 8)، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٢١ ﴾ (البقرة: 221)، ﴿ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾ (الجاثية: 4).

هذا الأسلوب القرآنى الذى يحض على المعرفة والبحث إلى درجة اللوم والعتاب والإنكار لموقف الذى لا يحاول أن يعرف أو يركن إلى الكسل الذهنى والركود العقلى، فيجعلهم القرآن كالأنعام بل هم أضل ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٧٩ ﴾ (الأعراف: 179)، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج: 46)، ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨ ﴾ (الأعراف: 198).

حاول أن تتبع إشارات القرآن الكريم إلى مراحل خلق الإنسان واحدة تلو الأخرى، فتشعرك الآيات كأنك فى حضرة الموقف، وكأنك تعيش كل أبعاده، وقد تجسدت أمامك مراحل الخلق ومشاهده.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ (سورة ص: 71).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (المؤمنون: 12).

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ ﴾ (الصافات: 11).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: 26 - 29).

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الروم: 20).

ثم تنتقل الآيات إلى مرحلة أخرى من مراحل الخلق إنها مرحلة أبعد فى الخلق من مرحلة الطين والصلصال إلى مرحلة أرقى وأكثر تطورًا وأقرب إلى الكمال:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾ (الطارق: 5 - 7).

﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (المرسلات: 20 - 23).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المؤمنون: 12 - 14).

وفى سورة الحج يتناول نفس المرحلة بمستوى آخر على شكل متدرج

فى تطور الخلق فيقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ ...﴾ (الحج: 5).

وفى حديث القرآن عن مراحل خلق الإنسان يلفت نظرنا إلى مرحلة نفخ الروح الإلهى فى الجسد الترابى لينقل الإنسان بفكره وعقله إلى التأمل كيف ينتقل من مرحلة الموات المطلق إلى مرحلة الحياة بنفخة إلهية ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (سورة ص: 71 - 72).

إنها النقلة النوعية التى يدخل بها هذا الكائن الجديد عالمًا آخر ويرتقى به من مستوى الوجود الترابى لا حياة فيه إلى مستوى أرقى من الوجود، إنه مستوى الإعداد والتأهيل منه التكريم والأفضلية التى تؤهله لاستحقاق الأمر الإلهى للملائكة أن يسجدوا له .. ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ . إن هذه النفخة الإلهية التى لم تحصل فى النطفة إلا بعد تسويتها، بعد أن أصبح هذا الكائن الجديد مؤهلاً لاستقبال هذه النفخة الإلهية، مستعدًا لتحمل تبعاتها من التكاليف والإقرار بالعبودية لله والخلافة فى الأرض، ومحاولة السمو الروحى لكى يرقى ويرقى إلى مراتب العارفين بمن خلق، إنه خلق جديد وطور جديد من الإعداد والتأهل، فسبحان من خلق فسوى، وقدر تهدى.

إن هذه المرحلة فى الخلق يضعها القرآن أمام العقل ليعيد النظر والتأمل فيها مرات ومرات، وقد أقسم القرآن بهذه المرحلة الوجودية من خلق

الإنسان لما لله فيها من آيات باهرات تساوى فى عظمتها آيات الكون كله من الشمس والقمر والليل والنهار، ولعل لهذا سر من أسرار عظمة الله يكشف عنه القسم بها ضمن القسم بالآيات الكونية الكبرى ﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ (الشمس: 1 - 10). إنها مرحلة من الإعداد والتأهيل والتسوية للنفس البشرية تعدل الوجود كله لأن الله جمع فى خلقها بين آياته الكونية فى الآفاق وعالم الأفلاك كما جمع فيها بين الآيات المبثوثة فى الأرض وما عليها، كما قال الشاعر:

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

يضع القرآن هذه المرحلة أمام العقل، ويرشد المسلم إلى وجوب النظر فيها باعتبارها قسيمًا مستقلاً لآيات الله الكونية يتطلب البحث والمعرفة تمامًا كالآيات المبثوثة فى الآفاق قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: 53)، وقال سبحانه: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ (الذاريات: 20 -23). فكأنك أمام ثلاثة عوالم مستقلة، كل واحد منها يجب أن يكون موضوعًا للعلم والبحث والمعرفة:

الآيات الأفقية.

النفس الإنسانية.

الأرض وما عليها.

إن النفس الإنسانية بعد أن سواها خالقها أصبحت صالحة لاستقبال النفخة الإلهية، التى نقلت هذه النفس الإنسانية كلها من عالم التراب والجماد إلى عالم الحياة والأحياء، هى سر وجوده، هى الحياة التى حلت بالنطفة، فجعلت منها بشرًا سويًا ... وهى الآية الكبرى التى يقسم بها القرآن، ويجعل منها آية أمام العقل ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ أنا هنا لست عالمًا فى الفيزياء أو الكيمياء، ولا أتكلم هنا عن ماهية الحياة التى بدأت تدب فى النطفة بعد النفخة الإلهية فيها. ولا أظن أن هناك من البشر من يدعى العلم بماهية هذه الحياة ولا كيف حلت فى النطفة لتنقلها هذه النقلة الكبرى من عالم الجماد إلى عالم الأحياء. ومع ذلك فإن القرآن الكريم يأمرنا بالتأمل والبحث وإدامة النظر؛ لنقف عاجزين أمام هذه الآية ﴿ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ . وتخيل معى حالة الأعمى الذى لا يستطيع أن يبصر ما حوله من أشياء هذا العالم مع شدة تطلعه إلى معرفة ذلك، أنها تشبه تمامًا حالة العقل العاجز أمام هذه الآية الظاهرة، ولكنها على قدر سلطانها المعجز للعقل تبعث اليقين فى القلب وتؤسس ركائز الإيمان فى النفس؛ لأن العقل والقلب لا يملكان أمامها إلا أن يقولا: سبحان الله، سبحان من خلق فسوى، وقدر فهدى، لقد وقف المفكر الكبير على عزت بيجوفيتش الرئيس السابق للبوسنة والهرسك أمام ظاهرة الحياة مندهشًا. وطرح هذا السؤال على علماء الأحياء والكيمياء. هل نحن قادرون على إنتاج الحياة ..؟[1] فأجاب: نعم. إذا استطعنا أن نفهم لغز الحياة. ثم طرح السؤال: وهل نستطيع أن نفهم لغز الحياة؟ وأخذ يستطلع إجابات علماء الطبيعة والكيمياء؟ فلم يجد عندهم

---

(1) انظر ص66 من كتابه العظيم "الإسلام بين الشرق والغرب" _ ترجمة محمد يوسف عدس – مؤسسة العلم الحديث – بيروت – 1994م – ط1.

إجابة على السؤالين معًا، ولأن البيولوجيا ليس علمًا عن جوهر الحياة، وإنما هو علم يتعلق بظواهر الحياة فى الأحياء. كموضوع ومنبع للمعرفة.

ولأن المادة مناقضة للحياة كان السؤال محيرًا للعلماء كيف أنتجت المادة الميتة الحياة. إن قصور علم (البيولوجيا) عن تفسير الحياة لا يمكن المرور عليه فى صمت. ثم يطرح نفس السؤال على العلماء واحد تلو الآخر فتكون الإجابة... حتى الآن لا نعرف على وجه التحديد ماهية الحياة. نحن لا نستطيع أن نقدم تعريفًا كاملاً دقيقًا لظاهرة الحياة[1] . إن القدرة التلقائية للخلايا على خلق الأعضاء من بين الحقائق الأساسية التى تعلمناها خلال الملاحظة ولا نجد لها تفسيرًا فى ضوء فهمنا الحالى[2].

تظهر الحقائق النفسية (الكامنة فى الخلية) بشكل يستعصى على الفهم ... ومن ثم فإن قطاعًا نفسيًا كبيرًا لا يمكن فهمه حتى على وجه التقريب. إن الحقائق النفسية لا يمكن دراستها من الخارج، كما أن الحقائق الطبيعية لا يمكن دراستها من الداخل.

إننا لا نستطيع أن نفسر الحياة من خلال معرفتنا الراهنة لعلمى الطبيعة والكيمياء، إن الحياة أمر زائد على مجموع العناصر المادية المكونة لكل كائن حى، وينقل على عزت بيجوفيتش عن علماء الطبيعة قولهم: لقد نجحنا فى تخليق مركب من أحماض نووية فيروسية، وهذا فى حد ذاته لا يعطينا الحق أن نتحدث عن تركيبة الحياة .. من السهل علينا أن ننتج بعض أجزاء البروتين أو الحامض النووى، ولكن ليس من الممكن أبدًا تخليق

(1) ص67 نفس المرجع.
(2) ص68.

الكائن الحى، وأصبح من العسير إن لم يكن من المستحيل على العلماء الفهم الكامل للحياة فى داخل الخلية؛ لأن الأساليب التى تستخدمها الأعضاء داخل الخلية فى بناء نفسها بذاتها عصية على العقل البشرى. أكوام من المادة تنبثق من خلية واحدة مفردة، كأن بيتًا كاملاً يبنى من طوبة واحدة (سحرية) طوبة تقوم تلقائيا بتوليد وحدات أخرى من الطوب ... إن عقولنا تتوه تمامًا فى العالم الداخلى للأعضاء؛ لأن الحياة معجزة أكثر منها ظاهرة[1].

ويسوق العلماء العديد من الأمثلة الحية لبيان أن حياة الخلية معجزة وليست ظاهرة، معجزة عصية على الفهم لتعدد الوظائف التى تقوم بها الخلية الواحدة وتعقدها، واستعداد الخلية ذاتيًا لأداء هذه الوظائف المعقدة والعصية على فهم أربابها حتى الآن. وسوف اختار مثالين فقط مما أورده هذا المفكر، وليس اختيارنا للمثالين بمحض المصادفة وإنما لأن المثالين قد أشار القرآن الكريم إلى الأول منهما على سبيل التذكير والتوجيه بنعمة الله فيه، والثانى ذكره الإمام أبو الحسن الأشعرى فى رسالته القيمة إلى أهل الثغر كدليل عملى على أن هذا العالم الصغير (الإنسان) يعتبر كل جزء فى جسمه آية من آيات الله تستحق الدرس والنظر العلمى والتذكير بها. وينقل المؤلف هذا المثال عن العالم (الكيس كارل) فيقول: انظر إلى العين؛ عين الإنسان إنها مستقرة فى تجويف ممتلئ بالدهون محمية بجفن من أعلى وجفن من أسفل، وبها رموش وحواجب وغشاء مخاطى، وملتحمة مكسوة بغشاء مخاطى، إن حركة العين ممكنة فى كل اتجاه، ممكنة بواسطة عضلات متحركة، اثنان منها مستقيمان واثنان منحرفان، ويسهل الحركة جهاز دمعى يتكون من غدة دمعية وكيس دمعى وقناة دمعية، وهذه تحفظ العين

(1) ص71.

رطبة وتحميها من التلوث، ولكى تؤدى العين وظيفتها توجد طبقة هى أهم جزء فى العين، إنها الشبكية حيث توجد العضلات البصرية على شكل مخروطيات موصولة بخلايا ثنائية القطب ... وفى الدموع مادة قاتلة للبكتريا، وهى مادة قادرة على تدمير مائة نوع من البكتريا أكثر فاعلية من أى منتج كيميائى يصنعه البشر، ويستطرد العالم فى شرح وظائف الجهاز البصرى (العين) بشكل تفصيلى .. ثم يتساءل كيف اشتملت النطفة على هذا الجهاز بهذه الوظائف الدقيقة وهى نطفة لا ترى إلا بالمجهر، وكيف احتوت على هذه الوظائف المعقدة فى نظامها، وهى مازالت نطفة؟ وكيف احتفظت بهذه الوظائف فى أطوار حياتها المختلفة من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى مخلوق جديد، ويستمر العالم فى طرح هذه الأسئلة التى حيرته ولم يجد لها إجابة فى قاموس العلم الطبيعى. وهذه التساؤلات وغيرها مما لم نعلمه إلى الآن. قد نبهت إليها الآية الكريمة التى جاءت فى صيغة الاستفهام التقريرى الذى يؤكد على وجود هذه المعجزات سواء أقر بها المرء أم أنكرها وجحدها. قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ** ﴾ (البلد: 8 - 9)، ﴿ **وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (النحل: 78).

أما المثال الثانى الذى يسوقه هذا العالم دليلاً على أن الحياة لغز محير وليست ظاهرة وجودية فقط، فهو (الكبد) وتعدد وظائفه وتعقدها أمام العلماء بحيث يقفون أمام هذا الجهاز فى حالة من الحيرة والدهشة. يقول هذا العالم: "إن للكبد وظائف مختلفة ... إنه مصنع كيميائى لا يجاريه أى مصنع آخر، إنه يستطيع أن يعدِّل أى مادة كيميائية ضارة ليجعلها صالحة للجسم، إنه ذو قوة هائلة فى إزالة السموم حيث يحلل الجزئيات السامة،

ويجعلها غير ضارة، إنه مستودع دماء ومخزن البروتينات ... الكبد معمل لصناعة الإنزيمات والكولسترول والبروتين وفيتامين أ وعناصر تخثير الدم ... وتحت ظروف معينة يستطيع الكبد أن يستعيد وظيفته لإنتاج خلايا الدم الحمراء ... ويستمر هذا العالم فى شرح وظائف الكبد ثم يطرح نفس الأسئلة .. كيف احتوت النطفة على هذا الجهاز الأهم فى جسم الإنسان، وكيف احتفظت بهذه الوظائف فيها خلال مراحل التطور التى مرت بها نطفة فعلقة فمضغة فخلق آخر ... ومن اللافت للنظر أن نفس المثال قد أشار إليه الإمام الأشعرى فتكلم عن وظائف الكبد وأهميته لكن بأسلوب غير الأسلوب ومنهج غير المنهج(1).

إن القرآن الكريم حين يقرر هذه الحقيقة فى أطوار خلق الإنسان يجعل فيها مجالاً للتأمل العقلى وحسن التدبر فى صنع الخالق، وهذا لا يتم إلا أن نجعل هذه الحقيقة العلمية كلها موضوعًا للبحث العلمى فى قاعات الدرس ومعامل التجربة. إنه أمر إلهى نبَّه إليه القرآن وحثنا على النهوض بها باعتبارها مظهرًا للعبادة وشعيرة من شعائر ديننا حتى نكتشف سر هذه الحقيقة التى يتنقل بها هذا الكائن العجيب من طور الجماد والموات إلى طور الحياة والأحياء، إنها النقلة التى تملأ الفجوة الكائنة بين الطين والإنسان، بين التراب الأصل والحيوان الفرع الناتج عنه، إن هذه التسلسل فى النشأة يسوقه القرآن فى شكل مجمل دون تفصيلات ولا تفريعات لأن هذا ليس من مقاصد القرآن ولا من أهدافه، لأنه يترك ذلك للعقل الإنسانى ليبحث هذه السلسلة فى الوجود الإنسانى، ويتساءل حولها ما علاقة الطين والتراب بالإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم. إن البحث عن همزة

(1) انظر نفس المرجع ص70 - 73.

الوصل بين الطين وهذا الكائن العجيب هو عمل العقل ووظيفته، ويكفينا أن القرآن الكريم قد نبهنا إلى بحث هذه القضية بأسلوب مجمل ومختصر حين يقول: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (العنكبوت: 20). ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ (الطارق: 5 ـ 7). ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ﴾ (السجدة: 7). إنها إشارات مجملة يترك القرآن للعقل أن يعمل على اكتشاف تفصيلاتها ليعلم منها على قدر استطاعته من المعرفة، وما يجهله منها ـ وهو أكثر مما يعلم ـ يقف أمامه متأملاً كما فعل هؤلاء العلماء... كيف ... كيف .. كيف؟ ولا بأس أن يقارن بعض العلماء المتخصصين بين أطوار خلق الإنسان وأطوار خلق الحيوان، فمراحل النشأة واحدة، فإن الإنسان والحيوان مخلوق من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة. ثم تأتى المفارقات العجيبة بين جنين الإنسان وجنين الحيوان.

إن النطفة هى أصل الجنين للإنسان والحيوان معًا، والشبه كبير بينهما فى أطوار الخلق المادية الخاصة بالجسد الترابى، ولكن ـ سبحان الله ـ سرعان ما تبدأ كل واحدة منهما تعرف طريقها الخاص بها وتشق طريقها، نحو أداء وظيفتها الوجودية المهيأة لها، والتى أعدها الخالق، وسواها للنهوض بها، وقدر لها أوقاتها اللازمة لكل مرحلة فى سلسلة التطور الخلقى، فتسلك نطفة الإنسان سبيلها نحو بناء (خلق آخر) بينما تسلك نطفة الحيوان طريقها لبناء جنين الحيوان.

تسلك نطفة الإنسان طريقها نحو كمال الخلقة وجمالها، نحو الارتقاء فى سلم الوجود الإنسانى، بينما تبقى نطفة الحيوان فى أداء مهمتها الحيوانية مجردة من خصائص الرقى التى تمتع بها الإنسان، إن نطفة

الإنسان مزودة بخصائص تمدها بكل احتياجاتها اللازمة لها فى بناء الهيكل الإنسانى جسديًا وروحيًا ونفسيًا وعقليًا. إنه خلق آخر، إن النطفة الجسدية المادية لكل من الإنسان والحيوان يتشابها إلى حد كبير فى البناء المادى. ثم تتوقف هذه المماثلة عند حدود الجانب المادى الحيوانى من الحيوان، ثم تبدأ سلسلة الرقى فى النطفة الإنسانية حيث تباشر النفخة الإلهية دورها فى الارتقاء بهذا الكائن الجديد من مرحلة إلى مرحلة، وتبتعد فى كل مرحلة عن المستوى الوجودى لنطفة الحيوان لتبدأ مظاهرها المميزة لها فى الوجود، وتبرز هذه النطفة خصائصها، وتباشر وتعيش خصائص الإنسانية نشاطها وفق السنن الإلهية التى أعدها الله لها وسواها عليها وقدر لها. والمسافة بين كل مرحلة وأخرى كبيرة وهائلة، كبيرة فى خصائصها، كبيرة فى وظيفتها، كبيرة فى تسويتها وإعدادها للمرحلة التالية لها.

وكذلك المسافة كبيرة بين الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب وبين هذا الإنسان السوى المدرك العاقل المعجز فى تركيبه العضوى والعصبى والعقلى والنفسى.

والمسافة كبيرة بين الإنسان الذى أفرزته نطفة الماء الدافق والحيوان الذى أفرزته نطفة الحيوان المفترس. إن هذه المسافات الكبيرة يجب أن تكون موضوعًا للدرس الأكاديمى والبحث العلمى؛ ليدرك عالم الحيوان والبيطرى سرًا من أسرار الصنعة، فالنطفة التى يخرج منها هذا وذاك تتشابه إلى حد كبير. ثم يكون الخلاف بينهما أكبر وأكبر، هذه الخلايا المكونة للجانب المادى فى بنية الجسم تبدأ لا عقل لها ولا قدرة ولا إرادة، وبمجرد استقرارها فى قرارها (المكين) تبدأ فى تلقى الأوامر الإلهية والعمل الدائب فى تنفيذ هذه الأوامر وكأنها مدربة عليها منذ أمد بعيد، فتبدأ تبحث عن غذائها؛ حيث

ترعاها يد الله بالغذاء من السائل المعد لذلك فى الرحم، ثم تبدأ فى الانقسام المستمر إلى خلايا أخرى تعرف كل واحدة، منها وظيفتها المعدة لها، فتباشرها بشكل تلقائى بلا معلم لها ولا مدرب عليها.

إنها تعرف ماذا هى فاعلة؟ إنها تعرف ماذا تريد وماذا يطلب منها؟

لأن من خلق فسوى، وقدر فهدى، علمها كيف تسلك طريقها المرسوم لها فى بناء هذا الهيكل الجسدى للإنسان، وكل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة سواها خالقها لبناء ركن من أركان هذا الجسد، فهذه مجموعة لتأسيس الهيكل العظمى، وأخرى لتأسيس الجهاز العضلى، وثالثة لتأسيس الجهاز العصبى، وما أشبه هذا الهيكل ببناء العمارة التى يعرف كل عامل دوره فيها ومهمته فى تشييد بنائها؛ ولكن بناء الجسم الإنسانى أكثر تعقيدًا وأشد إحكامًا ـ ولله المثل الأعلى فى الخلق والفعل ـ لأن كل خلية فى بناء جسم الإنسان تنطلق وهى تعرف طريقها. تعرف إلى أين هى ذاهبة وتعرف الغرض المطلوب منها، فتقوم به بلا انحراف عن الهدف ولا تخطئ واحدة منها الطريق المرسوم لها أبدًا. فهذه وظيفتها صناعة العين الباصرة. وهذه وظيفتها السمع، وتلك وظيفتها الحس، و... و ... الخ، والعجيب أن كل خلية لا تذهب إلا للمكان المعد لها سلفًا فى التخطيط العام لهذا الهيكل الجسدى. ولعلك تدرك معى الفارق الكبير بين الخلايا التى تصنع منها عين الإنسان، والخلايا التى تصنع منها عين الحيوان، وعين الطائر. الفارق بينها كبير شكلاً ووظيفة. فمن الذى علم هذه الخلايا أن تؤدى هذه الوظائف؟

من الذى علم خلية الإنسان أن يتكون عن هذه الخلية عين الإنسان لا عين الحيوان؟

من الذى أعطاها هذا الشكل الهندسى الذى لا تحيد عنه؟ لأن أى انحراف عن الشكل المرسوم لها يخرجها عن طبيعتها المحدد لها. فتكون عين كائن آخر غير الإنسان؟

من ذلك الذى سواها على هذا النحو العجيب؟ من الذى رباها على أداء هذه الوظيفة بدون أن تنحرف عن مسارها المرسوم لها علمًا بأن الخلية لا قوة فيها ولا إرادة ولا علم لها؟ ... إن هذه الأسئلة هى التى يذكرنا القرآن بها لنجعلها موضوعًا للبحث والدراسة فى قاعات العلم ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ ﴾ (البلد: 8 ـ 9). فلماذا يغفل الإنسان المسلم عن بحث ما أمره الله به، وينتظر أن يقوم غيره بهذه المهمة نيابة عنا ...؟ إن هذه الآيات وغيرها فى عالم الشهادة جعلها القرآن الكريم كتابًا مفتوحًا نتعلمه، ونقرأ فيه ونعمر به دنيانا، فلماذا تخلف المسلمون عن هذه القراءة وتركوها لغيرهم ...؟ إن مسيرة النطفة الإنسانية فى هذه الرحلة الطويلة حاملة لكل هذه الخصائص التى تميزها عن غيرها، محتفظة بها على طول رحلتها دون انحراف عن القصد والهدف ينبغى أن يكون موضوعًا للبحث العلمى بين أيدى المسلمين، ولكن للأسف الشديد فإن المسلمين يمرون على هذه الآيات مغمضى الأعين مغلقى القلوب، ويكتفون من قراءتها بمصمصة الشفاه وهز الرؤوس طربًا وإن زادوا على ذلك حوقلوا ... فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل فى كل حق أسهم فى تخلف المسلمين عن قراءة الكون والفوز بثماره.

حديث القرآن عن الحشرات والحيوان:

ويتحدث القرآن عن عالم الحيوان تذكيرًا بآيات الله فيه، وتذكيرًا بمنافع الناس منه، وكيف هيأ الله عالم الحيوان لخدمة الإنسان، وهيأ عالم النبات لخدمة الحيوان والإنسان. إن نظرة سريعة إلى حديث القرآن عن عالم الشهادة يكشف لنا عن عناية الله بالإنسان وتكريمه له، فسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه، فجعل الجماد خادمًا للنبات، والنبات خادمًا للحيوان والإنسان، وجعل الحيوان خادمًا للإنسان، وأعد الماء والتراب والهواء لأداء الوظائف الكونية لخدمة الإنسان، ويتحدث القرآن عن كل هذه الآيات؛ ليذكر الإنسان بها حتى لا تطغى الغفلة على قلبه وعقله بسبب طول الإلف معها وكثرة التعود عليها، فلا يحس بما فيها من آيات وعظات، فالفلاح فى حقله قد غفل عن آيات الله فى الحيوان، الذى يعيش فى كنفه صباحًا ومساءً، ومات عنده الشعور به ولم يجد فيه إلا حاملاً للأثقال والمتاع من مكان إلى آخر، أو آلة يستخدمها فى الحرث والزرع، لكن هذه الكائنات تحمل من آيات الله ودلائل عظمته ما يستحق أن يكون محلاً للدرس والبحث العلمى للعالم البيطرى وعالم الحيوان، قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (النحل: 5-8).

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ

﴿ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 66 - 69).

إن سورة النحل التى اشتملت على هذه الآيات قد تحدثت عن عالم الشهادة بشكل أكثر تفصيلاً عن غيرها من القرآن المكى. وإذا أضفنا إليها سورة الأنعام وما اشتملت عليه من تذكير بآيات الله فى عالم الشهادة. نجد أن القرآن الكريم لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا نبه إليها.

تأمل هذه الآية، ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ إن استخلاص (مادة اللبن) هذا الغذاء الربانى الذى يفرزه الحيوان والإنسان لكى يتغذى به الطفل حيوانًا كان هذا الطفل أو إنسانًا يحتاج من العقل الإنسانى أن يتأمل هذه الآية المعجزة.

مما كان هذا اللبن؟

وكيف كان هذا اللبن؟

وما هو المعمل الكيميائى الذى قام بهذه الوظائف المعقدة. الحيوان يتغذى، بأنواع مختلفة من الطعوم والشراب، كيف يتحول هذا الطعام فى داخل هذا المعمل الكيميائى إلى لبن يصلح غذاءً للطفل؟ من الذى صنع هذا المعمل الكيميائى داخل الحيوان؟ كيف يستخلص هذا المعمل مادة اللبن من بين فرث ودم؟ إن فى ذلك لآية. إن تحول الغذاء فى جسم الحيوان إلى دم ولبن وفرث، وقيام كل خلية فى الجسم بوظائفها المعدة لها عملية عجيبة فائقة الدهشة، تحتاج من العالم المسلم أن يتأمل الآية، ويستخلص العبرة الدالة على فائق القدرة والحكمة والعلم. مما يدعو إلى وضع هذه الآية الظاهرة العجيبة موضع البحث العلمى والدرس الأكاديمى ليؤسس علمًا عن الحيوان، الذى تتجلى فيه آيات الخالق لتخاطب الفطرة الإنسانية بلغة الإيمان بشكل متوازٍ مع خطابها للعقل بلغة البرهان.

إن عملية امتصاص الغذاء داخل الخلية وتحويل الغذاء إلى طاقات داخل جسم الحيوان والإنسان ظل سرًّا مجهولاً أمام العقل إلى وقت قريب.

إن إشارة القرآن إلى ظاهرة استخراج اللبن من بين فرث ودم لم تكن واردة على العقل لكى يفكر فيها فى ذلك الوقت المتقدم من الزمن، ولم يكن من المتاح للإنسان فى ذلك الوقت أن يجعل هذه الحقيقة العلمية موضوعًا للبحث أو الدرس العلمى، ومع ذلك نجد القرآن الكريم ينبه العقل المسلم أن يجعل هذه الظاهرة موضوعًا لعمل العقل، موضوعًا للبحث والدرس كجزء من الكون العام الذى هو الوظيفة الكبرى لعمل العقل ونشاطه الفكرى.

والذى يتبع وضع هذه الآية فى سورة النحل ويلاحظ السياق العام للسورة كلها يجد السورة تعرض على العقل آيات كثيرة من عالم الشهادة تتعدد أنواعها من عالم النبات وعالم الحيوان وعالم الحشرات، ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: 6 - 8).﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (النحل: 66 - 69). وبالإضافة إلى ذلك كله نجد قوله تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ ليفتح الباب واسعًا أمام العقل يتخيل فيه ما يشاء من موضوعات للعلم والدرس الأكاديمى، فهذا الكون هو المسرح العام لعمل العقل، وكدَّ الذهن، واكتشاف القوانين، واستنباط العلاقات بين هذه الظواهر بعضها والبعض الآخر.

ولو أخذ المرء لحظة مع نفسه يراقب ما خلق الله فى السموات والأرض ما علمناه منه وما لم نعلمه، ويستعرض هذا الحشد الهائل من أنواع الكائنات وأجناس الموجودات واختلاف الهيئات والأحوال والأشكال والأوضاع؛ لأدرك السر العجيب فى ختم هذه الآيات بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ فتستشعر القلوب هذا الأمان والاطمئنان الذى يزرع فى قلب المؤمن برد اليقين، ويجعل القلب فى حالة استشعار دائم بعظمة الخلق وقدرة الخالق فى عرض هذه الآيات الباهرة على عقل الإنسان، يتأملها، ويتعلم منها، ويستحضر معانى الإبداع المعروضة للأنظار والأسماع والعقول، وهذا هو منهج القرآن فى مخاطبة كينونة الإنسان وفطرته البشرية بآيات الله الكونية، آيات الله فى عالم الشهادة حول الإنسان والحيوان والنبات والجماد وعالم الأفلاك، هذا هو منهج القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية بلغة العقل والعلم والوجدان، ولم يلجأ إلى هذا الأسلوب الجدلى الذى جد فيما بعد فى علم الكلام وعند الفلاسفة، فإن الله سبحانه وتعالى يعلم إن لغة الجدل لا تسمع القلب ولا تصل إليه، فضلاً عن أن تبعث فيه الاطمئنان ، لغة الجدل لا تصل إلا إلى منطقة الذهن البارد التى لا تولد حركة فى القلب، ولا تبعث فيه عوامل الاطمئنان ولا برد اليقين؛ ولذلك فإن لغة الجدل سرعان ما تتلاشى وتذهب مع الرياح بخلاف منهج القرآن فى تأسيس اليقين الذى يأخذ بهذا المنهج الجامع بين منطق العقل ولغة العلم والبرهان ومخاطبة القلب والوجدان فى آنٍ واحدٍ.

حديث القرآن عن عالم الغيـــب

تستعمل كلمة الغيب فى مقابلة كلمة الشهادة، لتعبر بها هما غاب عن الحواس الخمسة فلم يستطع الإنسان أن يدركه بأى حاسة، بخلاف الشهادة التى تقال على ما يدركه الإنسان بحواسه كأن يرى الشيء أو يسمعه أو يشمه، كما يستعمل عالم الغيب كمصطلح دينى فى مقابل عالم الشهادة.

والغيب بهذا المفهوم قد يطلق على ما مضى من الأحداث والأخبار التى لم نعاصرها، فهى غيب بالنسبة لنا، وتاريخ الأمم الماضية مما أخبرت عنه الرسل أو جاء الخبر عنه فى القرآن الكريم غيب لمن لم يعاصره، وهو المسمى بالغيب الماضى، ويدخل فى هذا المعنى ما حدث به القرآن الرسول ﷺ عن أخبار قوم نوح وقوم عاد وثمود وأخبار بنى إسرائيل، فهى كلها أحداث لم يشاهدها الرسول ﷺ، ولم يدركها بحواسه ولكن جاء الخبر عنها فى القرآن الكريم، فعلمها الرسول ﷺ عن طريق الوحى بها، ولو لم يأت الخبر فى القرآن عنها لما كان للرسول ﷺ طريق معصوم للعلم بها أو التحدث بها، وقد أشار القرآن إلى ذلك المعنى فى قوله تعالى مخاطبًا الرسول ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (القصص: 46).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران: 44).

وبقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ (الأعراف: 101).

وجاءت هذه الآيات لتبين لنا أن الرسول ﷺ لم يكن له علم بهذه القصص المتعلقة بالغيب الماضى لولا ما أخبر القرآن عنها، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى أخبر الرسول بذلك عن طريق الوحى، ولم يدع الرسول ﷺ أنه علم ذلك أو كان له طريقة للعلم بذلك لولا إخبار الوحى عنه، وما جاءت به الآيات القرآنية عن هذه الأمم الماضية وأخبارها مع رسل الله إليهم، وما فعلوه بهم.

ويدخل فى هذا المعنى أيضًا (الغيب المستقبل) وهو الإخبار عما سيقع فى المستقبل مما لا علم للمرء به عن طريق الحواس الخمسة، فإن المستقبل لم يقع بعد حتى يدعى أحد العلم به، ومعلوم أن التنبؤ بالمستقبل ضرب من الكهانة التى نهى عنها الشرع، ولكن الله سبحانه وتعالى قد أعلم رسوله الكريم ببعض الأحداث التى سوف تقع فى المستقبل تأييدًا له وتصديقًا لرسالته، ونزل الوحى بذلك، وأخبر الرسول ﷺ بها قبل أن تقع، ومن ذلك الغيب المستقبل ما جاء فى القرآن الكريم من إخبار الرسول عما سيقع من الأمور المستقبلية مثل انتصار الروم على الفرس، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ﴾ (الروم: 1- 4).

فعلم الرسول ﷺ من ذلك أن الروم – وهم أهل الكتاب – سوف ينتصرون فى المستقبل بعد بضع سنين (ثلاث أو خمس أو سبع سنوات).

ومثل ما جاء فى القرآن من البشارة بعودة الرسول ﷺ إلى مكة بعد أن أخرجه قومه منها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ

إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (القصص: 85).

وبشارة القرآن للرسول ﷺ بفتح مكة فى قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ (الفتح: 27).

وهذه كلها بشارات من الله لرسوله بما سيقع فى المستقبل وهو أمر غيبى لم يدع الرسول العلم به لولا إخبار القرآن عنه. ولم يتحدث به الرسول ﷺ قبل نزول الوحى به؛ لأنه الرسول ﷺ لم يعلم الغيب الماضى ولا الغيب المستقبل، بل ولا الغيب الحاضر، قال تعالى على لسان الرسول ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ (الأعراف: 101). وهذا بالطبع لا يلغى خصوصية الرسول فيما اختصه الله به دون سائر البشر من الإلهام والخواطر والنور الإلهى الذى أنار الله به قلوب أوليائه ورسله، ولكن هذا شيء خاص بهم لا مجال فيه للتشريع أو الحكم والتعامل مع الناس.

وهناك الغيب الحاضر المعاصر للمرء، ولكنه غائب عن حواسه أيضًا ، ولا يستطيع الإنسان أن يدركه ، ويدخل فى هذا المعنى للغيب قصة الشاة المسمومة التى قدمتها صفية اليهودية للرسول ﷺ ليأكل منها وهى مسمومة.

والقصة معروفة فى كتب السيرة والتاريخ، وقد تحدث القرآن عن الغيب الماضى والغيب المستقبل، وبين لنا أن القرآن يقص هذه النماذج على الرسول ﷺ – وهو الذى لا يقرأ ولا يكتب – ليبيّن لقومه أن الله هو الذى أخبره بهذه الغيوب عن طريق الوحى، وأن القرآن ليس من عند محمد، وإنما هو وحى من الله؛ لأنه كيف يعلم هذه الأخبار وهو لا يقرأ ولا يكتب، ولذلك

جاء خاتمة الآيات التى تحدثت عن هذه القصص مؤكدة أن هذا وحى من الله، وليس من عند محمد ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ (الأعراف: 101). وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (آل عمران: 44). ولكنه الوحى الإلهى وهذا يعنى أن الرسول ﷺ لا يعلم ذلك، ولكن الله أعلمه به، وهو صلى الله عليه وسلم لم يدع العلم بذلك، وهو القائل ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (الأنعام: 50).

وهذا المفهوم لمعنى الغيب يمكن أن نسميه بالغيب النسبى الذى يشمل ما غاب عن الحواس فى الماضى وما غاب عن الحواس فى المستقبل، وفى الحاضر أيضًا كلها غيوب نسبية؛ لأن ما غاب فيها عنا فى الماضى قد أدركه غيرنا من المعاصرين لها، وما غاب عنا فى الحاضر مما لم ندركه نحن بحواسنا ربما يدركه غيرنا ممن شاهدوها فأدركوها، وكذلك الأمر فى الغيب بالمستقبل، وتأسيس اليقين بالنسبة للغيب الماضى يتوقف على صدق الخبر عنه، فى ذاته وصدق المخبر به وما لم يتوفر هذان الشرطان (صدق الخبر فى ذاته وصدق المخبر به) وكذلك الأمر بالنسبة للحاضر والمستقبل من الأمور التى لم يجربها المرء بنفسه، وهكذا شأن الإنسان فى علاقته بهذا الغيب النسبى، فقد يكون الأمر غيبًا بالنسبة لشخص دون شخص آخر، وقد يكون غيبًا بالنسبة للشخص الواحد فى وقت دون وقت آخر، ومن هنا تتحدد علاقة العقل بهذا اللون من الغيب، فما غاب عنا من عالم الشهادة وجربه غيرنا وتبين صدقه لزمنا العمل به، حتى ولو لم نجربه نحن بأنفسنا.

وما تواتر العلم به عن الأمم الماضية من أخبار الأنبياء عنهم هو مما يلزم العلم به؛ لأن أخبار الأنبياء معصومة عن الخطأ، وما يتنبأ به العلماء

بناءً على المشاهدات العلمية المتكررة هو من هذا القبيل يجب العمل به بناء على اطراد السنن الإلهية فى الكون سواء تعلقت هذه السنن بالظواهر الطبيعية أو بالمجتمعات البشرية؛ لأن سنة الله فى كونه لا تتخلف إذا وجد المقتضى وارتفع المانع، وهذا هو محل اعتبار الإنسان فى الكون واعتباره لتاريخ الأمم الماضية الذى ندب القرآن إليه فى نهاية كل قصة يقصها عن الأمم الماضية؛ حيث يقول: ﴿ **فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢** ﴾ (الحشر: 2) ﴿ **لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ** ﴾ (يوسف: 111) ﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ** ﴾ (الشعراء: 67) تكررت كثيرًا فى سورة الشعراء هذه التعقيبات القرآنية على قصص الأمم الماضية تلفت نظرنا إلى الغرض من سوق هذه القصة أو تلك؛ ليقوم العقل بوظيفته فكرًا وتأملاً واعتبارًا. وذلك ما ندبه الشرع له وحث عليه.

الغيب المطلق:

أما الغيب المطلق وهو ما لا سبيل للعقل للعلم به عن طريق الحواس بحال من الأحوال، أو هو ما استأثر الله بعلمه وحجبه عن جميع خلقه، قال الله تعالى: ﴿ ۞ **وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ** ﴾ (الأنعام: 59). ﴿ **قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ** ﴾ (النمل: 65).

1- والغيب المطلق قد يذكر فى القرآن الكريم، ويراد به ما سبق من مكنون العلم الإلهى الذى استأثر الله به، وحجب العلم به عن سائر خلقه، يستوى فى ذلك الرسول والنبى والولى إلا ما شاء ربك منهم فيعلمه الله ما شاء من علمه كيف شاء، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ** ﴾ (البقرة: 355) ﴿ **وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ** ﴾ (النساء: 113). فهذا العلم الإلهى غيب عن عقل الإنسان؛

لأنه لا ينال بحس ولا عقل، ولا سبيل إليه إلا بالتعليم الإلهى لمن شاء من عباده عن طريق الوحى أو الرؤيا أو الإلهام، فهو ليس اكتسابًا ولكنه وهب وعطاء، ولا مدخل لروافد العقل المعرفية إليه، لكنه هناك أبواب أخرى لتحصيل هذه المعرفة، يقصدها العارفون بها، ويدخل منها أهلها، ويسعى إليها أهلها وعشاقها، كما وردت الإشارة إليهم فى قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: 282)، ﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ (البقرة: 151). فهذا النوع من العلم لا ينال بكسب عقلى ولا يتخيله عقل، ولا يناله وهم، وإنما يتعلم من الله بطريقته المعروفة ووسائله المشروعة.

2- وقد يطلق الغيب فى القرآن الكريم، ويراد به الذات الإلهية وصفاتها، وعلى ذلك كثير من المفسرين فى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة: 2- 3) فقالوا: إن الغيب هنا هو الله، نقل ذلك ابن تيمية عن جماعة من الحنابلة منهم: أبو يعلى، وابن عقيل، وابن الزاغوانى[1]، وخالفهم فى ذلك آخرون رفضوا إطلاق لفظ الغيب على الله.

ويبدو أن الخلاف فى هذه المسألة خلاف لفظى؛ ذلك أن الذين أجازوا إطلاق لفظ الغيب على الله، رأوا أن الخلق يغيبون عن الله فى معظم أحوالهم، فلم يذكروه ولم يعبدوه ولم يشهدوه فى أفعالهم، فهو سبحانه ليس بنفسه غائبًا عنهم حفظًا ورزقًا ولطفًا وعونًا، وإن كانوا هم غائبين عنه إنابة وتوكلاً، وذكرًا، وعبادة فى معظم أحوالهم.

(1) راجع دقائق التفسير 1/202، منهج القرآن فى تأسيس اليقين، ص41.

فالمعنى المقصود فى استعمال لفظ الغيب على الله هو انتقاء شهود الخلق له فى معظم الأحوال، وهذا صحيح وواقع.

أما الذين رفضوا إطلاق لفظ الغيب على الله كان قصدهم أنه سبحانه وتعالى حاضر مع كل كائن فى كونه ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ (المجادلة: 7) فهو سبحانه مع خلقه علمًا ورزقًا ولطفًا وإحياءً وإماتةً، وهو سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو سبحانه شهيد على العباد، رقيب عليهم، ومع كل كائن فى كونه بهذا المعنى، فهم الغائبون عنه، وليس هو الغائب عنهم؛ ولذلك لا يجوز إطلاق لفظ الغيب على الله. وهذا المعنى صحيح أيضًا.

وعند التحقيق لا نجد خلافًا بين أصحاب الرأيين؛ فأصحاب الرأى الأول يجيزون استعمال لفظ الغيب على الله لغياب الخلق عنه، وأصحاب الرأى الثانى يرفضون ذلك؛ لأنه سبحانه ليس غائبًا عن الخلق وإن كان الخلق غائبين عنه. وكلا الرأيين صحيح على هذا التفسير، فصارت المسألة خلافًا لفظيًا فقط.

عالم الغيب

ونجد فى علم العقيدة حديثًا عن (عالم الغيب) الذى يختلف فى مفهومه ومعناه عن الغيب النسبى والغيب المطلق. ذلك أن مصطلح عالم الغيب يطلق فى علم العقيدة على كل ما أخبر عنه القرآن الكريم وأخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح مما لا سبيل للعقل إلى معرفته إلا عن طريق الخبر عنه بالكتاب أو السنة. مثل إخبار البعث

والحساب، والجنة والنار، والملائكة، وعالم الجن، وأشراط الساعة، والقضاء والقدر، ويدخل فى هذا النوع – عالم الغيب – حديث القرآن عن أسماء الله وصفاته، والعرش والكرسى، واللوح المحفوظ، والقلم، والصراط، والميزان، والكوثر، وبعبارة جامعة يدخل فى هذا اللون من الغيبيات ما يسمى فى علم الكلام (بالسمعيات)؛ وهو مصطلح كلامى يطلق على الأمور التى ورد السمع بها، ولا مدخل للعقل فى العلم بها إلا بالسمع؛ ولذلك سموها سمعيات.

والإيمان بعالم الغيب أصل من أصول العقيدة الإسلامية، ولا يتم إيمان المرء إلا به، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة: 285).

وفى حديث جبريل المعروف: « ... ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره » الحديث.

ولقد ورد فى القرآن الكريم الحديث عن: الميزان، والصراط، والكوثر، وحياة البرزخ، وعذاب القبر، كما وردت الأخبار الصحيحة بذلك عن سؤال الملكين ... ولا أريد هنا حصر مسائل السمعيات؛ لأن هذا ليس من مقاصد هذه الدراسة، ويكفينى هنا الإشارة إلى وجوب الإيمان بها؛ كما أمر القرآن الكريم، ووردت بها الأخبار الصحيحة ...

وقد تنكرت بعض المدارس الفلسفية لعالم الغيب ونسج على منوالها كثير من الدارسين للفلسفة الذين تتلمذوا على تراث هذه المدارس دون أن يتحصنوا بالعلم الشرعى النافع لهم فى هذا الباب من المعرفة، وسجنوا أنفسهم فى دائرة المعارف الحسية فقط التى لا يؤمن أصحابها إلا بما يقع

تحت حواسهم وتناله مداركهم الحسية، أما ما وراء المحسوسات فقد أنكروه تمامًا وتنكروا له، بل واتهموا المؤمنين به بالجهل والخرافة، وبالتالى فإن كل حديث عن عالم الغيب لا معنى له عندهم، فلا بعث عندهم بعد الموت، ولا حساب، ولا جنة ، ولا نار، وتأولوا حديث القرآن عن عالم الغيب بما يشبه أحلام اليقظة التى يحاول الإنسان المقهور أن يحقق لنفسه فيها ما لم يستطع أن يحققه فى عالم الواقع الذى يعيشه، فالضعفاء والمقهورين والفقراء والمساكين يخلقون لأنفسهم عالمًا آخر يحققون فيه أحلامهم المقصودة التى عجزوا عن تحقيقها فى الدنيا من الثأر من الظالم، والانتصار للمظلوم من الظالم، وللفقير من الغنى، وللضعيف من القوى... وهكذا يحققون لأنفسهم فى عالم الأحلام الذى تخيلوه بعد الموت ما عجزوا عن تحقيقه فى حياتهم الدنيا، وقد سمعنا من بعضهم مشافهة وقرأناه فى كتبهم، كما قرأه غيرنا أيضًا. والقرآن عندهم ليس وحيًا من الله لرسوله، وإنما هو منتج ثقافى أفرزته البيئة البدوية فى جزيرة العرب نتيجة الفقر، والجهل وحياة البداوة التى كانوا يعيشونها، ولم يكن أمامهم إلا أن يحلموا بعالم آخر تتحقق فيه رغباتهم بعد الموت[1].

وأخذ هؤلاء الدارسون يوجهون الاتهامات إلى المؤمنين بعالم الغيب والمعتقدين فيه، فهم غيبيون، يؤمنون بالخرافة، يحاربون العقل، ويرفضون العلم ... الخ. هذه الاتهامات التى نشروها فى مؤلفاتهم وصفًا للمؤمنين بعالم الغيب. وكم قرأنا فى الصحف وفى كتب ومقالات هؤلاء من ألفاظ جارحة، واتهامات قاسية، لكل مؤمن بالغيب معتقد فيه، وصارت القضية الإيمانية

(1) سمعنا ذلك مشافهة من د/ حسن حنفى، ووردت فى مؤلفاته العديدة وألقاها أمامنا فى محاضرات فى الجمعية الفلسفية المصرية، ونقله عنه تلامذته.

عندهم مناقضة لمنطق العلم والعقل معًا، وقد أصبحت كلمة الغيب والغيبة والغيبيين من الكلمات التى تلوكها الألسن كثير فى معرض النيل من المؤمنين، وكأن الإيمان بالغيب أصبح مناقضًا للعقل والتفكير العقلى .. وهذا ما يردده الكثير من العلمانيين الماديين، فيضعون العقل والعقلانية فى مقابلة تناقضية مع الإيمان بالغيب والغيبيين.

والقرآن الكريم يقرر أن هناك غيبًا يحيط بنا فى هذا الكون من كل جانب، ويقرر أننا نعيش هذا الغيب فى صباحنا ومسائنا، وفى يقظتنا وفى نومنا، وفى غدونا ورواحنا، وأنه حيث تروح وتغدو فأنت فى صحبة مع عالم غيبى، وأن هذا الغيب لا يعلمه إلا الله، فهو وحده عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو. ويقرر القرآن الكريم أن ما يتمتع به الإنسان من علم ببعث فيه الاغترار والتيه إنما هو علم قليل إذا قورن بما يجهله من العالم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء: 85) وأن هذا العلم إنما يتعلق بظواهر الأشياء، وليس بحقيقتها ولا كنهها ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الروم: 7). وأن مصدر هذا العلم هو من الله ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (النساء: 113) علم الإنسان ما لم يعلمه، وأن الإنسان كلما ازداد علمًا بالأشياء ازداد علمًا بحقيقة الجهل بالعالم الذى يعيشه، وإن كل علم جديد يحصله يكشف له عن جهل كان يعيشه دون أن يعلم أنه جاهل.

فعلمه قليل، وعلمه يتعلق بظواهر الأشياء، وعلمه من الله، وعلمه يكشف عما كان يعيشه من جهل، ووراء ما علمه الإنسان عن هذا العالم – وهو قليل – عالم الغيب الذى يحيط به من كل جانب، هذه حقائق وجودية، يعيشها كل منا مع نفسه، سواء تنبه إلى ذلك أم لم يتنبه، وسواء اعترف به أم لم يعترف.

وإذا تجاوزنا الحديث عن الغيب الذى أخبرت به الرسل من الإيمان

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر. أقول إذا تجاوزنا ذلك لنقرر أن الغيب يحيط بالإنسان فى هذا الكون من كل جانب، فلا شك أن كل واحد يعرف فى قرارة نفسه أن الماضى بالنسبة له غيب، وأن المستقبل بالنسبة له أيضًا غيب، وأن الحياة حوله ذاخرة بالغيوب، فحياة الإنسان فى نفسه غيب، وفى نشأة الكون غيب، وفى سنن الكون التى تنتظم حركته غيب، ونشأة الحياة من الجمادات غيب، وفى قوانين الحياة وانتظام مسيرتها غيب، وفى حفظ الحياة على الأحياء غيب، ولا نبالغ إذا قلنا أن الذين ينكرون الغيب إنما يسبحون فى بحور الغيب من حيث ينكرون الغيب، بل إن دعوى إنكار الغيب هى فى ذاتها قول بالغيب.

إن الذين ينكرون الغيب باسم العلم بدعوى أنه لا مجال هناك للقول باللقاء بين العلم والغيب، فإما العلم وإما الإيمان بالغيب، هم متناقضون مع أنفسهم لأن هذا المنهج القائم على مبدأ التناقض بين العلم والغيب مؤسس على المادية النافية لكل ما وراء المادة . فلا وجود لما وراء المادة ولا حقيقة وجودية عندهم إلا لما تدركه الحواس، ... وقد فات هؤلاء أن معظم ما يعيشه المرء فى صباحه ومسائه محاط بالغيب، فالغيب ضارب حول الإنسان فى الكون، فى الإنسان، فالحياة ومصدرها ونشأتها وطبيعتها وارتباطها بالوجود المادى غيب.

والإنسان ما هو؟ ما حقيقته؟ ما العقل الذى يفكر به؟ كيف يريد؟ كيف تصدر الأوامر إلى الأعضاء لكى تتحرك؟ كيف يقع الفعل من الإنسان؟ ما الذى يجرى داخل الإنسان وهو يفكر وكيف يفكر؟ أنها كلها غيوب، وليس للعلم فيها إلا الظن والتخمين.

ما حقيقة الروح؟ ما حقيقة الموت؟ ما حقيقة العلاقة بين النفس والبدن؟ ... أليست هذه غيوبًا يقف العلم فيها موقف التسليم والتفويض ورفع

الراية البيضاء أمام حقيقة الغيب؟

إن القرآن الكريم يقرر أن هناك عالم الغيب وعالم الشهادة، وإذا كان عالم الشهادة مشهودًا للحواس فإن حركة عالم الشهادة وقانونه غيب عن الحواس، والكون المادى نفسه محكوم بالقانون الغيبى، الذى سماه القرآن (سنَّة). وهذه السنة الكونية يملك الإنسان أن يتعرف عليها، ويعرف منها القدر اللازم لتفسير الظاهرة المشهودة للحواس، ومعرفة هذه السنة هو العلم الكونى، الذى دعانا القرآن إلى الأخذ به كمنهج للحياة، ودعانا إلى الإلمام بأطراف هذا العلم الكونى؛ لكى تعمر به الأرض، ولكى تحقق به وظيفة التسخير، التى أرادها الله للإنسان.

إن القرآن يدعونا إلى الإيمان بالغيب المكنون الذى لا يعلم مفاتحه إلا الله والإيمان بالسنن الكونية التى لا تتبدل، فلا يفوت المسلم الإيمان بالغيب، ولا يفوته العلم بالسنن الكونية؛ لأن العقل يدعوه إلى الإيمان بالسنن الكونية التى تقوده بقوانينها وقواعدها إلى الحقيقة المطلقة، وهى الغيب المطلق الحاكم لهذا الوجود، إن الإيمان بالغيب هو الخطوة الأولى نحو ارتقاء الإنسان بفكره وعقله عن مرتبة الحيوان، الذى لا يدرك من الأشياء إلا ما تناله الحواس منها.

إن الإيمان بالغيب هو النافذة إلى ذلك العالم الأكبر والوجود الأشمل الذى ينتقل بالإنسان من ذلك العالم الضيق المحدود بالحواس ومداركها إلى عالم رحب، وهى نقلة نوعية بعيدة الأثر فى إدراك درجة الإنسان ومرتبته فى هذا الوجود، حيث يدرك ذاته وحقيقته ووظيفته فى الكون، وإحساسه بالكون المشهود، ويدرك ما وراءه من تدبير وعناية وحفظ؛ لكى يدرك وراء الكون ـ ما ظهر منه وما بطن، ما علمناه منه وما لم نعلمه ـ حقيقة أكبر من الكون وما فيه.

نعم إن الإيمان بالغيب هو مفترق الطريق بين الإنسان والحيوان، الإنسان الذى يخترق هذا العالم المادى بعقله وفكره إلى وجود أرحب وعالم أشمل، والحيوان الذى خلق بطبعه حبيس مداركه الحسية، والذين ينكرون الغيب ويعتبرونه نقيض العلم إنما يعودون بالإنسان إلى عالم الحيوان الذى لا وجود عنده إلا المحسوس، وللأسف الشديد أنهم يدعون إلى ذلك باسم النهضة والتقدمية.

وعند استقراء آيات الكتاب العزيز فى حديثه عن الغيب نجده محفوفًا بالمحاذير التى تشير إلى عدم الخوض فيه، نجد أسلوب القرآن فى الحديث عنه مسبوقًا بأداة النفى التى تدل على التحذير والنهى عن الادعاء بأن هناك من يعلم الغيب ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (النمل: 65) وجاء ذلك النفى قاطعًا وبأسلوب الحصر فى قوله تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: 59).

ولقد تكرر ذلك كثيرًا فى القرآن الكريم. وأحب أن أنبه هنا إلى قضيتين مهمتين أرى ضرورة التفرقة بينهما.

القضية الأولى: تتعلق بحديث القرآن عن الغيب النسبى المتعلق بالماضى والحاضر والمستقبل، الغيب بمعنى متعلقات العلم الإلهى فى هذا الكون، ما كان فيه وما هو كائن، وما سيكون. هذا النوع من الغيب الذى هو عبارة عن معلومات الله التى لا تتناهى، قد تحدث القرآن عنه بأسلوب الاستثناء. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ (البقرة: 255) فالعلم المنفى هنا هو معلومات الله التى لا تتناهى، وقد استثنى القرآن من النفى من شاء الله من عباده أن يعلمهم ما شاء من هذا العلم، وكيف شاء. قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الجن: 26). وفى هذا المقام من الاستثناء تتفاوت درجات الناس فى تعليم

الله لهم هذا النوع من الغيب، فهناك الراسخون فى العلم، وهناك الأولياء والأنبياء والرسل. كل منهم يحظى بما شاء الله له من هذا العطاء الإلهى، والأمر هنا هو تعليم من الله وإعلام منه، وليس علمًا ذاتيًا من الولى ولا من النبى، والمقام يتسع هنا للتعليم عن طريق الإلهام والرؤيا الصادقة، والتحديث، كما يشمل الوحى أيضًا. وصدق الله العظيم ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ** ﴾ ولمن شاء.

أما **المقام الثانى** فهو يتعلق بحديث القرآن عن تعلم العلم بالغيب المطلق. كالعلم بذات الله، العلم بصفات الله. حقيقة الذات الإلهية، حقيقة الصفات الإلهية، كيفية الذات، كيفية الصفات ... الخ، فالمقام هنا مقام غيب مطلق لا قبل للعقل بالعلم به على سبيل، الكنه أو الحقيقة والكيفية، وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا الغيب المطلق بالنفى المطلق دون استثناء لأحد؛ لأن المقام مقام الإلوهية، ومقام الربوبية. قال تعالى: ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا** ۝١١٠ ﴾ (طه: 110) فالنفى هنا نفى مطلق دون استثناء لأحد، لأن المباينة بين الخالق والمخلوق مباينة مطلقة، ولا مجال هنا لتصور عقلى حول حقيقة الذات وصفاتها، والأمر كما قيل: جل جناب الحق أن يحوم حوله عقل فيدركه أو وهم فيناله؛ لأنه تعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وكل حديث حول حقيقة الذات الإلهية وحقيقة صفاتها أو بيان كيفيتها هو من هذا القبيل الذى نهى عنه القرآن على سبيل النفى المطلق الذى لا مجال فيه للاستثناء.

ومن المهم هنا أن نشير هنا إلى الفرق بين منهج القرآن فى حديثه عن عالم الشهادة وحديثه عن عالم الغيب، لكى نحدد فى ضوء هذه المقارنة موقف علماء المسلمين من عالم الشهادة وموقفهم من عالم الغيب.

جاء حديث القرآن عن عالم الشهادة مفصلاً غير مجمل، فتحدث عن

بـدء الخلـق، وأنـواع المخلوقـات (الجمـاد، النبـات، الحـشرات، الحيـوان، الإنسان، عـالم الأفلاك) ونبه إلى ذلك كله باعتباره آية من آيات الله يجب قراءتها، بينما جاء حديث القرآن عن عالم الغيب مجملاً دون تفصيل.

نبـه القـرآن الكـريم المسلمين أن يجعلـوا عـالم الـشهادة موضـع اهتمـام وتأمل وبحـث لكـى يستطيعوا أن يفيدوا مـن قوانينـه وتعميره، أداءً لـوظيفتهم الوجوديـة التـى أناطهـا بهـم الـشارع فـى قولـه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: 61) بينما طلب منهم القرآن أن يؤمنوا بعـالم الغيـب دون البحـث فيـه أو الجـدل حولـه. ولـذلك لم تـرد آيـة فـى القـرآن تطلـب مـن المؤمن أن يبحث فى قضية غيبية، لكن أمر القرآن جميع المؤمنين أن يؤمنـوا بكل مـا أخبر بـه القـرآن مـن الغيبيـات، والفـرق كـبير بين مقاصد القرآن فى حديثه عن عالم الشهادة وحديثه عن عالم الغيب، عـالم الشهادة موضوع بحث وتأمـل وموضـع العمـل العقلـى، وصـفحته معروضـة علـى العقـل أن يقـرأ فيهـا ويقـرأ منهـا قـدر استطاعته. وتلك وظيفـة العقـل فـى التـصور القرآنـى، بـل هـذا تكليف إلهى للعقل أن يجعل آيـات الله الكونيـة مجـال بحـث وتفكـر وتأمـل، أمـا عالم الغيب فإن مقصود القرآن فى حديثه عنه هو مطلق الإيمـان ولـيس الجـدل أو البحث. كما جاء فى الأثر: تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا.

يتفـرع عـن الأمـرين الـسابقين أن أى حـديث عـن ذات الله وصـفاته ينبغـى أن يكـون مؤسسًا علـى ذلـك، فهـو حـديث عـن قـضية غيبيـة، مطلـوب القـرآن فيهـا هـو الإيمـان ولـيس البحـث أو الجـدل، فـضلاً عـن أن حقيقـة ذاتـه وحقيقـة صـفاته لا يعلمهـا إلا هـو؛ لأنـه فـوق مـستوى الإدراك العقلـى، فلـم تـرد آيـة فـى القـرآن تطلـب مـن المـؤمن أن يتفكـر فـى ذات الله ولا فـى حقيقـة صفاته أو يبحث فى كيفيته سبحانه أو كيفيـة صـفاته، وشـبهوا ذلـك الموقـف بجـرم الـشمس كلمـا ازداد الإنـسان فيـه نظـرًا ازدادت عينـه غـشاوة، وكـذلك

العقل كلما ازداد تأملاً فى ذات الله ازداد عقله حيرة، ولقد نبه إلى ذلك جيل الصحابة حيث قال على بن أبى طالب ﷺ فى نهج البلاغة: "إنه سبحانه لا تدركه الشواهد، ولا تحويه المشاهد، ولا تراه النواظر، ولا تحيط به السواتر... تتلقاه الأذهان لا بمشاعره، وتشهد له المرائى لا بمحاصرة ولم تحط به الأوهام "[1].

وعلى هذا النحو الذى أشار إليه الإمام على ﷺ مضى جمهور الصحابة والتابعين، وعلموا تمامًا أن القرآن الكريم قد أمرهم بالتفكير والنظر فيما خلق وقدر، ولم يتساءلوا أبدًا حول قضية غيبية خاصة ما يتصل بالذات والصفات؛ لعلمهم أن البحث حول كيفية الذات وصفاتها على النحو الذى وجدناه عند المتكلمين.

إنما يجوز على من لم يكن ثم كان، أما الذى لا يحول ولا يزول ولم يزل وليس له مثل ولا أول فإنه لا يعلم كيف هو إلا هو. يقول الإمام العكبرى: "اعلم رحمك الله أن العصمة فى الدين أن تنتهى حيث انتهى بك، ولا تجاوز ما قد حد لك، فإن من قوام الدين معرفة المعروف وإنكار المنكر. فما بنيت عليه المعرفة وسكنت إليه الأفئدة وذكر أصله فى الكتاب والسنة وتواترت عليه الأمة فلا تخافن فى ذكره وصفته، ولا تخافن لما وصف من ذلك قدسًا، وما أنكرته نفسك ولم تجده فى كتاب ربك ولا فى الحديث عن نبيك فلا تتكلفن علمه بعقلك ولا تصفه بلسانك ، وأسكت عما سكت عنه الرب، فإن تكلفك معرفة ما لم يصف لك من نفسه مثل إنكارك ما وصف منها"[2].

---

(1) نهج البلاغة 1/350 ـ 351.

(2) الإبانة عن أصول الديانة لابن بطة العكبرى، وانظر إعلام الموقعين لابن القيم 1/49 ط 1955م بالقاهرة.

موقف السلف من عالم الغيب

يصور لنا الإمام ابن القيم موقف سلف الأمة من عالم الغيب فيقول: "انقضى عصر الصحابة والتابعين من السلف والأئمة على التسليم المطلق بما جاء فى الكتاب والسنة عن عالم الغيب عمومًا وخاصة ما يتصل منه بالذات الإلهية وصفاتها، ولم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال: "بل كلهم على إثبات ما نطق به الكتاب العزيز والسنة النبوية كلمتهم واحدة من أولهم إلى آخرهم، لم يسموها تأويلاً ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلاً ولم يبدوا لشيء منها إبطالاً، ولا ضربوا لها أمثالاً، ولم يدفعوا فى صدورها وأعجازها، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها، وحملها على مجازها، بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإجلال والتعظيم"[1].

ولم نشهد لديهم هذا الجدل العقيم فى أمور العقائد، الذى وجدناه فيما بعد لدى متكلمى الإسلام من معتزلة وأشاعرة، ومن ثم لم تكن مسألة فى الغيبيات أو البحث فى الصفات الإلهية موضع خلاف أو نزاع لدى كبار الأئمة من أمثال مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد والأوزاعى والثورى وغيرهم.

ولم نقرأ عن النبى ﷺ أو عن أحد من صحابته أنه توقف أمام آية من آيات الكتاب العزيز، أو وصف من أوصاف البارى تعالى، الواردة فى الكتاب والسنة؛ ليستخرج من هذه الآية أو تلك مذهبًا معينًا فى فهم العقيدة كما فعل المتكلمون من بعده، بعد أن تفرقوا وتحزبوا، ولم يثر عليه السلام جدلاً

---

(1) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية 49/1 ط الثانية سنة 1955م – تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد.

أو نقاشًا حول آية من الآيات التى تتحدث عن أفعال العباد، كما أثاره حولها القدرية والجبرية، ولم ير عليه السلام نوعًا من التضاد أو التناقض بين آيات النوعين حاول أن يرفعه، كما صنعت بعض الفرق الإسلامية فيما بعد.

وتعتبر قضية الإلوهية أهم مشكلة فى عالم الغيب واجهت العقل البشرى في مختلف مراحل تطوره، لأنه لا يوجد مذهب فلسفى، ولا دين سماوى إلا وتمثل هذه القضية أهم جانب فيه، وقد حاول أصحاب كل دين ومذهب أن يضعوا لها حلولا تناسب طبيعة هذا الدين أو ذلك المذهب.

وتعتبر قضية الصفات الإلهية من أخطر القضايا الغيبية التى خاض فيها علماء الكلام وفلاسفة الإسلام وذلك لتعلقها بالذات الإلهية وما يجب لها من صفات الكمال، وما تتنزه عنه من صفات النقص، ولما كان القرآن الكريم هو قطب الرحى فى الحديث عن الله، فقد خص الجانب الإلهى بالحديث في الكثير من آياته. فهناك آيات تتحدث عن الحكمة الإلهية وأخرى تتحدث عن القدرة والإرادة والحكمة والعلم إلى غير ذلك من الآيات التى أودعها الله هذا الكون؛ ليستدل بها عليه، ومعلوم أن الحديث عن الذات الإلهية وصفاتها من عالم الغيب الذى استأثر الله بعلمه، ومن خلال حديث القرآن عن هذا الجانب الإلهى بالذات نستطيع أن نحدد أمورًا قد اعتبرها القرآن قواعد عامة للحديث فى ذلك الأمر الأهم. وهذه القواعد هى:

1- فى حديث القرآن عن الذات الإلهية نجده يقول: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤ ﴾ (الإخلاص: 1-4).

وأنه تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: 11) و﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ

﴿ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (الروم: 27) ليس كمثله شيء وهو السميع العليم. هذه الأمور الثلاثة كانت أساسًا لحديث القرآن عن الذات الإلهية وصفاتها، فهو سبحانه لا كفوًا له، وليس كمثله شيء، له المثل الأعلى.

2- إذا استقرأنا آيات القرآن التى تتحدث عن الذات الإلهية وصفاتها لم نجد آية واحدة تتحدث عن كيفية هذه الذات ولا عن كيفية صفاته، وما حقيقة هذه الصفات وما كنهها؟ بل حين سأل فرعون رسول الله موسى عليه السلام: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ (الشعراء: 23)؟ أى ما كنهه وما حقيقته قال له موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ (الشعراء: 24).

ونحن نعلم أن السؤال بما هو سؤال عن الحقيقة والكنه، وكان جواب "موسى" عليه السلام هو بيان بعض صفات الرب، بأنه رب السموات والأرض وما بينهما.

ولم يحاول نبى الله موسى أن يبين لفرعون، ما هو الرب؟ وما حقيقته؟ وما كنهه ولا كيف هو؟ وإنما عدل عن جواب "ما هو" إلى التعريف به، سبحانه وتعالى بأن ذكر بعض صفاته، لأن نبى الله موسى يعلم تمامًا أنه لا يعلم كيف هو إلا هو.

من هنا نستطيع القول بأن كل آية وردت فى القرآن الكريم تتحدث عن الذات الإلهية وصفاتها كان هدفها هو إثبات وجود الرب وصفاته، وليس إثبات كيفه، ولا كيف صفاته.

3- أخذ القرآن فى إثبات صفات الرب نفس منهجه فى إثبات وجوده هو، فهو حين يذكر صفة من صفاته تعالى لا يذكرها مبينًا كيف هى وما

كنهها وحقيقتها، فإذا أخبرنا بأنه تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه: 5) أو أنه يجيء يوم القيامة والملك صفًا صفًا، لم يبين كيف استوى، وهل استواؤه بمماسة، أو من غير مماسة، ولم يبين أن المجيء بنقله أو بغير نقله، ولم يبين أنه إذا جاء هل يخلو العرش منه أم لا؟

فكل هذه الأمور لم يتعرض لها القرآن فى حديثه عن الذات الإلهية وصفاتها، بل كان منهجه فى ذكر صفاته تعالى: هو إثبات وجودها، لا إثبات كيفها؛ لأن إثبات الصفات فرع عن إثبات الذات يحتذى فيه حذوه، فكما نهج القرآن فى إثبات الذات الإلهية إثبات وجودها فقط، فكذلك كان منهجه فى الصفات إثبات وجود الصفة لا إثبات كيفها؛ لأن مطلوب القرآن الكريم فى ذلك هو الإيمان بالذات وصفاتها وليس البحث فى كيفية الذات ولا فى كيفية صفاتها.

4- وإذا تساءلنا عن السبب من أجله حرص القرآن على إثبات وجود الذات والصفات دون إثبات لكيفية الذات ولا لكيفية صفاتها تجد الجواب واضحًا فى القرآن الكريم حيث أنه قد نفى العلم بذلك صراحة حيث قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ (طه: 110)؛ لعلمه سبحانه وتعالى أن ذلك فوق طاقة العقل، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

وهذه كانت قاعدة عامة عند السلف، وكثيرًا ما عبروا عنها بعبارات مختلفة، وكثيرًا ما نجد فى حديثهم عن الذات الإلهية ما يدل على ذلك، فقد روى عن أبى بكر أنه قال: **"العجز عن درك الإدراك إدراك، والبحث فى ذات الله إشراك، كما نسب إليه أيضًا أنه قال: سبحان من لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا العجز عن معرفته، ولا ينبغى أن نتوهم فيه كيف لأن الكيف عنه مرفوع".**

وإذا صحت لنا هذه المقدمات الأربع، يكون من حقنا القول: بأن كل من سلك هذا المسلك فى حديثه عن الذات وصفاتها يكون ملتزمًا بمنهج القرآن فى حديثه عن الإلهيات، سواء كان ذلك فى عصر السلف، أو فى العصور المتأخرة.

وكل من خالف هذا المنهج فلا يكون ملتزمًا بمنهج القرآن، وإن كان موجودًا فى عصر السلف، وبين أظهر الصحابة والتابعين.

أى أن هذه الأسس تعتبر منهجًا رسمه القرآن فى حديثه عن قضايا الغيب بصفة عامة وبصفة خاصة فى حديثه عن الإلهيات، وعلينا الآن أن نحدد موقف السلف من الصفات الإلهية، فى ضوء هذا المنهج؛ لنرى: هل التزموا بذلك المنهج الذى رسمه القرآن أم خرجوا عليه؟ وعلينا أن نختار بعض الصفات لنحدد موقفهم منها فى ضوء هذا المنهج ولتكن هذه الصفات هى: العلو، الاستواء، النزول باعتبارها من الصفات الخبرية، ولأنها كانت محك الخلاف بين المنهج القرآنى ومنهج المتكلمين فيما بعد، ثم لأنها من جانب آخر كان الحديث حولها نفيًا أو إثباتًا مثار جدل وخلاف بين المتكلمين أنفسهم فى الوقت الذى سكت القرآن الكريم عن ذلك تمامًا.

العلـــو:

تحدث القرآن فى كثير من آياته بما يفيد إثبات صفة العلو لله تعالى ووجوب الإيمان بها، مثل قوله: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ (المعارج: 4)، وقوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ (الملك: 16)، وقوله: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر: 10) وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (الأنعام:

3) وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأنعام: 18).

وفى السنة الصحيحة عن النبى ﷺ ما يفيد إثبات صفة العلو لله مثل حديث الجارية التى سألها الرسول ﷺ فقال لها: (أين الله؟ فقالت: فى السماء، فقال لها: من أنا؟ قالت: رسول الله. فقال عليه السلام: أعتقها فإنها مؤمنة) وقصة عروج الرسول ﷺ إلى السماء، وحديث ابن عباس فى ذلك، بأنه رأى فى السماء الأولى كذا، وفى الثانية كذا.

ثم جاء السلف بعد الرسول ﷺ فآمنوا بما جاء عنه من السنة الصحيحة، وما كان معروفًا من حال الرسول ﷺ وصحابته من إثبات العلو لله، وكان ذلك متفقًا عليه بينهم، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يقف خطيبًا بعد وفاة الرسول ويقول: (من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله فى السماء حى لا يموت)، وهذا عمر بن الخطاب تستوقفه امرأة فى الطريق، فيصغى إليها حتى يقضى لها حاجتها، فيعجب من كان معه كيف تستوقفه امرأة أمير المؤمنين فى الطريق؟ فيقول لهم عمر: (هذه امرأة سمع شكواها من فوق سبع سموات)[1].

وهذا ابن عباس ترجمان القرآن وحبر هذه الأمة، يستأذن على عائشة – رضى الله عنها – وهى تموت ويقول لها فيما قاله: (كنت أحب نساء النبى إليه، ولم يكن الرسول يحب إلا طيبًا، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات).

ثم انقضى عصر الصحابة، والإجماع منعقد بينهم على الإيمان بما جاء به الكتاب والسنة فى ذلك، ثم نبتت بين التابعين مشكلات لم تكن موجودة من قبل.

(1) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن قيم الجوزية، ص47- 49 ، ط الإمام، بدون تاريخ.

وعلى ذلك البخارى فى "خلق أفعال العباد" [1] والأوزاعى والثورى وغيرهم من الأئمة.

فنجد كلام هؤلاء فى الصفات يمثل ردودًا على أسئلة كانت توجه إليهم حول الإيمان بالصفة أو صرفها عن ظاهرها، أو تأويلها بما يؤدى إلى تعطيلها.

وأبو حنيفة وهو من أكثر المتقدمين اهتمامًا بالعقل يقول: "له صفات بلا كيف، ولا يقال: إن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال الصفة"[2]، ويقول: "من قال: لا أدرى أن الله فى السماء أم فى الأرض فقد كفر". فهم تقبلوا أخبار الصفات دالة على ما جاءت لتقريره فوصفوه بها بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

وكان موقف السلف فى ذلك هو نفس المنهج الذى رسمه القرآن، إثبات وجود الاستواء والإيمان به على ما ورد فى القرآن، وليس إثبات كيفه، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، وإيمان بها دون البحث فيها.

والإمام مالك حين سئل عن قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (طه: 5) كيف استوى؟ غضب فى وجه السائل، وقال: بأن الاستواء معلوم، وأن كيفه مجهول، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا رجل سوء، وأمر به فأخرج من مجلسه.

وهذا الأثر وارد أيضًا عن ربيعة أستاذ مالك، وعن أم سلمة زوج الرسول ﷺ فهم جميعًا متفقون على نفى الكيفية وإثبات المعنى الذى أثبتته الآية.

ولم يتشاغلوا بالبحث عن الكيف، أو يتوهموا فيه معنى ما يحملون عليه الآية، بل كان سبيلهم إقرار الآية على ما دلت عليه من معنى، ولم

---

(1) مخطوط رقم 2895 توحيد بمكتبة الأزهر.

(2) الفقه الأكبر ص37.

يتساءلوا فى ذلك الاستواء هل هو استقرار حسى أو غير حسى؟ وهل بمماسة أو من غير مماسة؟ وهل العرش أكبر منه سبحانه أو هو أكبر من العرش؟ وهل هو سبحانه محتاج إلى العرش ليستوى عليه أم غير محتاج؟ كل هذه أسئلة أعفوا أنفسهم من البحث فيها؛ لأنها بحث فى الكيف والكيف عنه مرفوع، ولذلك لم يكن إثبات الاستواء عندهم يستلزم التشبيه أو التجسيم، وبالتالى لم يلجأوا إلى تأويل آياته بالاستيلاء أو القصد، بدعوى أن الاستواء يستلزم تشبيه الله بخلقه، ونظروا فى موارد هذه الصفة فى القرآن فوجدوها كلها استواءً، وليس فيها آية واحدة وردت بالاستيلاء على ما أرداه المتكلمون منها، حتى يحمل عليها غيرها، وما دام الكيف مرفوعًا عنه سبحانه وتعالى، وما دام ليس كمثله شيء، فلماذا يتأولونها بالاستيلاء أو القصد وكل ما يقصده القرآن هو إثبات وجود الصفة على كيف يعلمه الله وليس مرادهم بيان كيفها؟ ولم يصح عن أحد منهم تأويل الاستواء بالاستيلاء.

وحين يسأل ابن الأعرابى – وهو من كبار النحاة – عن معنى الاستواء فى قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ وهل هو بمعنى استولى؟ فيقول لابن أبى داود: اسكت هو على عرشه كما أخبر عن نفسه، ولا يقال استولى على الشيء إلا إذا كان له ند، فإذا غلب أحدهما الآخر قيل له: استولى، كما قال النابغة:

ألا لمثلك أو من أنت سابقه

سبق الجواد إذا استولى على الأمر

يقول ابن الأعرابى: أرادنى ابن أبى داود أن أجد له فى بعض لغات العرب ومعانيها ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾ بمعنى استولى. قلت له:

"والله لا يكون هذا ولا وجدته"[1]. وقال الخليل بن أحمد – شيخ سيبويه – فيما رواه عنه ابن عبد البر فى "التمهيد" أن استوى بمعنى ارتفع.

هذا هو معنى الاستواء فى لغة العرب، أما ما نجده فى كتب التفسير من التأويلات المختلفة للاستواء فليس واحد منها واردًا عن السلف، بل هى تأويلات أنتجتها طبيعة التفاعل المذهبى الذى اشتد بين علماء الكلام فى حديثهم عن هذه القضية التى أعفاهم القرآن من الحديث عنها، ونقله عنهم رجال التفسير على أنه المذهب الصحيح فى هذه الآية وما شاكلها.

والسيوطى يذكر فى "الإتقان" أقوالاً كثيرة فى الاستواء ويرى أنها جميعها منقولة عن السلف، وحاول السيوطى أن يرد منها ما لم يتفق مع رأيه، وهو فيما رد من الأقوال وما قبله منها كان مقياسه فى رفضه وقبوله أنها تستلزم الجسمية والتشبيه، ولو تفطن السيوطى إلى أن مقصود الآيات هو إثبات وجود الصفة التى تتحدث عنها لا إثبات كيفها لكان قد استقام له مذهبه فى القبول والرفض فيما لديه من أقوال.

والحقيقة: أن هذه التأويلات شملت معظم كتب التفسير فليس السيوطى بدعًا فى ذلك والعلة المشتركة بينهم جميعًا فى قبول الرأى أو رفضه هو الفرار من التجسيم بتأويل الآية وصرفها عن ظاهرها، فالرازى فى تفسيره لسورة طه جرى على ذلك المنهج فى التأويل[2]، والألوسى فى "روح المعانى" جعل الاستواء بمعنى الاستيلاء[3]، وعلى هذا النحو جرى الخازن فى

---

(1) اجتماع الجيوش العربية ص37، الإتقان للسيوطى 2-6.

(2) مفاتيح الغيب 4/6، 5، ط الخيرية سنة 1308هـ

(3) روح المعانى 223/5.

تفسيره[1]، وفى "البحر المحيط" لأبى حيان: أن استوى بمعنى قصد وأقبل وعمد [2]، وكذا إسماعيل حقى فى تفسيره[3]، وطاش كبرى زاده فى حاشيته على البيضاوى[4]. والنفراوى فى شرحه لرسالة القيروانى يجعل الاستواء بمعنى القهر[5]، وكذا بدر الدين ابن جماعة فى "إيضاح الدليل فى قطع حجج أهل التعطيل"[6].

ولو تعقبنا هذه الأقوال لوجدناها مأخوذة كلها من تأويلات بشر بن غياث المريسى، كما ذكرها عنه عثمان بن سعيد الدارمى فى رده على بشر المريسى، ثم تسربت هذه الأقوال إلى كتب التفسير عن طريق الزمخشرى فى الكشاف، كما أشار إلى ذلك ابن تيمية.

أما السلف فلم يرد عنهم شيء من ذلك، وأقوال السلف ثابتة فى كتب التفسير بالمأثور كالطبرى فى تفسيره، والسيوطى فى الدر المنثور، وابن كثير والبغوى. فهؤلاء نقلوا لنا أقوال السلف فى معنى الاستواء، عندهم هو العلو والارتفاع، قال بذلك أبو العالية ومجاهد[7]، وهو قول الفراء، والبغوى، وثعلب، والكلابى[8]، وإلى هذا المعنى ذهب الأخفش وابن الأعربى من النحاة. وهو قول

(1) تفسير الخازن 2/237 ـ 239، ط الحلبى سنة 1955م.
(2) البحر المحيط 1/134 ـ 135، ط السعادة سنة 1328هـ.
(3) روح البيان لإسماعيل حقى 3/690 بولاق سنة 1276هـ.
(4) حاشية الشيخ زادة على البيضاوى 2/203 ط بولاق سنة 1363هـ.
(5) مخطوط رقم 23 مجاميع بدار الكتب 66 توحيد.
(6) تفسير الطبرى 9/124، العقيدة الأصفهانية لابن تيمية ص28 ط دار الكتب الحديثة سنة 1996م، البخارى كتاب التفسير 9/124 (كتاب التوحيد باب وكان عرشه على الماء) ط الأميرية.
(7) اجتماع الجيوش الإسلامية ص127.
(8) تهذيب اللغة للأزهرى – مادة سوى – 13/123 ـ 125، الإتقان للسيوطى 2/6.

الخليل بن أحمد ونفطويه[1]. فهؤلاء جميعًا وهم أهل اللغة والتفسير يجعلون الاستواء بمعنى الصعود والعلو والارتفاع، ولم يرد عن أحد منهم أن الاستواء بمعنى الاستيلاء أو القهر، وليس فى اللغة ما يشهد بذلك أو يدل على صحته.

ولهذا فقد آمن السلف باستوائه على عرشه كما أخبر عن نفسه، ولم يتأولوا آيات الاستواء بصرفها عن ظاهرها، ولم يتوهموا فى الاستواء كيفًا ولم يتساءلوا: هل استواؤه حسى أو غير حسى؟ وهل يماس العرش أو لا يماسه؟ وهل يحتاج إلى العرش فى ذلك أم لا؟ بل كان سبيلهم هو السكوت والكف عن البحث فى الكيف، وإذا سأل أحد عن ذلك كان سبيلهم معه الزجر والتأنيب.

ومثل هذا كان موقفهم من خبر النزول، فقد ثبت عندهم من عدة طرق "حديث النزول" رواه أبو بكر، وأبو هريرة، وعلى بن أبى طالب، وجبير بن مطعم، وابن مسعود. ورواه عن الرسول ﷺ أكثر من عشرين صحابيًا، وتواتر ذلك عنهم كما يقول ابن قيم الجوزية، ولفظه كما فى الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ: **(ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل فيقول: من يدعونى فأستجب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟)** [2] وورد أيضًا عن أبى سعيد الخدرى مع اختلاف فى اللفظ، وفى مسند الإمام أحمد من حديث سهيل بن أبى صالح فى مواضع عدة، وفى كتاب التوحيد لابن خزيمة من رواية جبير بن مطعم وأبى الدرداء.

وفى جميع هذه الأخبار ورد الحديث بلفظ ينزل، أو يتنزل، أو يهبط إلى

(1) اجتماع الجيوش الإسلامية ص127، العقيدة الأصفهانية ص28.
(2) الحديث ورد فى البخارى 128/8 كتاب الدعاء، مسلم 521/1 كتاب الدعاء، وانظر كتاب التوحيد لابن خزيمة ص133.

سماء الدنيا، وليس هذا النزول يشبه نزول المخلوقين.

ولما تواتر الخبر بذلك وثبت عندهم من طرق الثقاة، ودل القرآن صريحًا على مجيئه يوم القيامة والملك صفًا صفًا، وانه ينزل لفصل القضاء، فلما ثبت عندهم ذلك آمنوا به بلا تأويل ولا صرف له عن ظاهره، ولم يتساءلوا: هل نزوله بنقله أو بغير نقله؟ وهل يخلو العرش منه أم لا؟ وهل يجيء بحركة أو من غير حركة؟ بل وصفوه بصفاته التى وصف بها نفسه؛ لأن وصفه بها لا يستلزم محذورًا؛ لأنه ليس كمثله شيء فى ذاته ولا فى صفاته. يقول أبو العباس بن شريح: "وقد صح عند جميع أهل الديانة والسنة إلى زماننا أن جميع الآثار والأخبار الصادقة عن رسول الله ﷺ فى الصفات يجب على المسلم الإيمان بها، والسؤال عن معانيها بدعة، والجواب كفر وزندقة، مثل قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ ﴾ وقوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ۝ ﴾ (الفجر: 22) ونظائرها مما نطق به القرآن، كالفوقية، والنفس واليدين والسمع والبصر وصعود الكلم إليه، والضحك والتعجب، واعتقادنا فى الآى المتشابهة من القرآن أن نقبلها ولا نردها، ولا نتأولها بتأويل المبطلين، ولا نحملها على تشبيه المخالفين"[1]، لأن قاعدة الإثبات أنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والإمام أحمد لما سأله ابنه: "نزوله بعلمه أم بماذا. قال له: اسكت عن هذا، وغضب غضبًا شديدًا، وقال مالك: امض الحديث كما ورد بلا كيف ولا تحديد إلا بما جاءت به الآثار وبما جاء به الكتاب العزيز فلا تضربوا لله الأمثال، ينزل كيف شاء بقدرته، وبعلمه، وبعظمته، أحاط علمه بكل شيء[2]،

(1) الصواعق المرسلة 2/299.
(2) العقل والنقل 2/17.

وهذا هو منهج السلف فى الصفات عمومًا. إجراء الآيات على ما دلت عليه من معنى والكف عما سكت عنه القرآن.

يقول أبو عثمان الصابونى: "فلما صح خبر النزول عن رسول الله ﷺ أقر به أهل السنة، وقبلوا الخبر وأثبتوا النزول على ما قاله الرسول، ولم يعتقدوا أن ذلك تشبيه له بنزول خلقه، وعلموا وعرفوا وتحققوا أن صفات الرب تعالى لا تشبه صفات المخلوقين كما أن ذاته تعالى لا تشبه ذوات الخلق".

وهذا هو المنهج الذى رسمه القرآن فى الحديث عن الصفات الإلهية.

وعندما يتحدث القرآن عن يد الله، وعين الله، أو عن استوائه على عرشه أو عن أن الأرض جميعًا قبضته، وعن مجيئه يوم القيامة والملك صفًا صفا، أو عن إتيانه فى ظلل من الغمام، لم يقصد الرسول من كل ذلك إلى نوع من التشبيه أو التجسيم، كما صنع المجسمة والمشبهة من المتكلمين فيما بعد، كما لم يشأ الرسول أن يتخذ من قوله تعالى: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (البقرة: 115) مذهبًا فى الحلول أو الاتحاد، كما فعل المتصوفة، بل كان يدرك تمامًا ما فى هذه الآية من معنى قوة الثقة بالخالق، وتأييده لعبده المؤمن: بما يملأ قلبه بالإيمان واليقين.

وإذا تحدث القرآن عن عظمة الله سبحانه، ومباينته لسائر خلقه فى ذاته وصفاته وأفعاله فى آيات كثيرة من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧ ﴾ (الرحمن: 26 ــ 27) وقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وقوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥ ﴾ (مريم: 65) وقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾ (الإخلاص: 4) لم يحاول الرسول أن يحمل هذه الآيات وغيرها على إرادة مذهب معين فى التنزيه كما

فعلت المعتزلة؛ لأن الغرض من مثل هذا القول إقناع الناس بأحقيته وحده سبحانه وتعالى بالربوبية والإلوهية، وعلى هذا النحو كان موقف الصحابة والتابعين حيث كانت قوة الإيمان راسخة فى القلوب، ومهيمنة على النفوس، وقد ذكر الإمام أبو الحسن الأشعرى إجماع الصحابة على الإيمان بكل ما ورد فى القرآن الكريم خاصًّا بالصفات الإلهية دون بحث فيها أو التساؤل حول كنهها وكيفيتها، بل آمنوا بها على ما أراده الله منها وكفوا أنفسهم عن الجدل حولها(1). ثم أخذت حرارة الإيمان تضعف فى القلوب شيئًا فشيئًا، وكلما ضعفت قوة الإحساس بالإيمان برزت وتعددت نواحى الاختلاف ودواعى الفرقة.

يقول المقريزى فى كتابه "الخطط: مؤرخًا لهذه الحركة الفكرية: "إن القرآن الكريم قد تضمن أوصافًا لله تعالى، لم تثر التساؤل عند واحد من العرب عامة قرويهم وبدويهم، ولم يستفسروا عن شيء بصددها كما كانوا يفعلون فى شأن الزكاة والصيام والحج وما إليه، ولم يرد فى دواوين الحديث وآثار السلف أن صحابيًا سأل الرسول عن صفات الله، أو اعتبرها صفات ذات أو صفات فعل، وإنما اتفقت كلمة الجميع على إثبات صفات أزلية لله من علم وقدرة وحياة وإرادة وسمع وبصر وكلام، ثم جاء جهم بن صفوان بعد عصر الصحابة، قبيل المائة من سنى الهجرة من بلاد المشرق، ونفى أن يكون لله تعالى صفة، وبعث الشكوك فى نفوس المسلمين، واجتذب إليه أنصارًا كثيرين يميلون لرأيه ويؤيدون فكرته، فأكبر أهل الإسلام بدعته ورموه بالضلالة هو وأصحابه، وحذروا المسلمين من الجهمية وعادوهم فى الله، وتولوا الرد عليهم. وحدث أثناء ذلك مذهب الاعتزال زمن الحسن بن الحسن

(1) انظر: رسالة أصول أهل السنة والجماعة. الفصل الثانى كاملاً.

البصرى بعد المائة للهجرة[1].

والمقريزى هنا يتابع جميع من أرخوا للحركة الفكرية فى الإسلام، إذ يكادون يجمعون على أن الجهم بن صفوان هو أول من خالف الجماعة الإسلامية فى مسألة الصفات الإلهية، وغيرها من المشكلات، التى نبتت وآتت ثمارها فى جو الخلاف الناشب بين مختلف الفرق والطوائف. ولكن آراء الجهم لم تكن لتنموا أو تبيض وتفرخ، لو لم تجد فى البيئة الإسلامية تربة صالحة لغرس ثمارها، كما حدث بين المتكلمين فيما بعد.

ولقد اخترت موقف السلف من الصفات بالذات؛ لأن هذه المسألة كانت ولا زالت أهم مشكلة أثارت الخلاف بين المتكلمين بين المثبتين للصفات والنفاة لها، وتفرع عن حديثهم حول هذه القضية مشكلات فرعية، فرَّقت كلمة المسلمين ولا زالت، علمًا بأن هذه المسألة لا ينبغى أن تكون محل بحث أبدًا؛ لأنها قضية إيمان وتسليم وليست قضية تأمل وبحث، ولما نقلها المتكلمون من مجالها الطبيعى (الإيمان) إلى مجال البحث العقلى محاولين تصور كيفية معينة للصفة حارت فيها كلمتهم، وتاهت فيها عقولهم، وكان الخطأ فى كلامهم عنها أكثر من الصواب، وبسببها تبادلوا الاتهامات فيما بينهم بالتكفير والتفسيق، ومن المعلوم أن البحث فيها ليس من أصول الدين، ولو كان البحث فيها أصلاً من أصول الدين لبينها الرسول ﷺ لأمته، كما بين لهم أن الظهر أربع ركعات، وبيَّن لهم أنصبة الزكاة وكيفية الحج.

ومن هنا فإن إقحام البحث فى هذه القضية فى مفردات علم الكلام أمر يحتاج إلى إعادة نظر؛ لأن الضرر الحاصل قد جنى المسلمون ثمرته فرقة

(1) انظر الخطط للمقريزى 2/356 ط بولاق سنة 1270هـ.

واختلافًا وتعصبًا لا مبرر له، ويجب أن يقتصر الأمر فى دراسة هذه الصفات على ذكر صفات الله تعالى الواردة فى الكتاب والسنة الصحيحة مع أبيان وشرح دلتها عقلاً ونقلاً دون التعرض للبحث فى الكيفية.

عالم الغيب فى علم الكلام

تمهيـــد:

اهتم علماء الكلام قديمًا ـ ولا يزالون ـ بالحديث عن قضايا العقيدة الإسلامية (النبوات ـ الإلهيات ـ السمعيات) توضيحًا وشرحًا لمفردات العقيدة، تجلية للغامض منها وتفصيلاً للمجمل منها ، ودفاعًا عنها ضد المخالفين لهذه العقيدة المعارضين لها والطاعنين فيها من ملاحدة كل عصر، سواء كانوا من أهل هذه العقيدة الخارجين عليها أم كانوا من غير هذه الملة الإسلامية من أبناء الملل الأخرى، سواء كانوا من أهل كتاب منزل؛ كاليهود، والنصارى، أم كانوا من أتباع المذاهب الفلسفية الوضعية، ونجد مؤلفات علماء الكلام تجمع فى قضاياها بين أمرين:

الأول: تقرير مسائل الاعتقاد بالبراهين العقلية والنقلية كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر، مستدلين على وجوب الإيمان بهذه القضايا بالآيات القرآنية، وما صح من حديث الرسول ﷺ. ثم يتبعون ذلك بما استطاعوا من الدلائل العقلية والبراهين اليقينية، يحدوهم فى ذلك الحرص الشديد على ضرورة الجمع بين دلائل النقل وبراهين العقل دفعًا لما قد يظن البعض من تعارض بين الدليل النقلى والدليل العقلى، وكان هذا منهجًا عامًّا لعلماء الكلام فى تقريرهم لمسائل العقيدة، الحرص الشديد على الجمع بين براهين العقل ودلائل النقل على كل مسائل العقيدة، حتى إن بعض الفرق كالمعتزلة قد بالغ فى حرصه على تجلية هذه القضية ـ الجمع بين العقل والنقل ـ فطبقوها على قضايا الغيبيات كاليوم الآخر وما فيه من البعث والحساب والجزاء ثوابًا وعقابًا، ولا شك أن علماء الكلام قد أبلوا فى ذلك بلاء حسنًا، وعلم الكلام قد قام بوظيفته التى نشأ وتأسس من أجلها على الوجه المرجو منه طيلة القرون الأربعة الأولى من تاريخه.

وقد شملت هذه الوظيفة _ فيما شملت _ الاهتمام بمسألتين:

الأولى: تقرير مسائل العقيدة من الكتاب والسنة، والبرهنة على هذه المسائل بدلائل وبراهين جمعوا فيها بين أدلة النقل الصحيح وبرهان العقل الصريح.

المسألة الثانية: الدفاع عن مسائل هذه العقيدة ببيان فساد أدلة المخالفين لها، وإقامة الحجة عليهم، وتولوا الرد على الدهريين والطبيعيين والفلاسفة المنكرين والبراهمة والمجوس .. وغيرهم. وكان اهتمام المتكلمين بهاتين المسألتين (تقرير مسائل العقيدة وبيان دلائل هذه المسائل. ثم الرد على أهل الملل الأخرى) هو شغلهم الشاغل فى القرون الأولى.

الأمر الثانى: يختص بنظر المتكلمين فى عالم الشهادة (العالم) وقد اصطلحوا على تسمية النظر فى العالم (دقيق الكلام) فى مقابل اصطلاحهم على تسمية النظر فى الإلهيات (جليل الكلام)، وكان الإمام أبو الحسن الأشعرى من أوائل الذين نهضوا بذلك فى كتابه الشهير "مقالات الإسلاميين" فكان الجزء الأول منه خاصًّا بالكلام عن موقف الفرق الإسلامية قبله من قضايا (جليل الكلام)، فكان يعرض لموقف الفرق المختلفة، ويذكر آراءها فى مسائل علم الكلام المعروفة مسألة مسألة، ويسوق أدلتهم على صحة آرائهم بأمانة وحرص شديدين، وهو من أصدق الكتب الكلامية فى نقل آراء الفرق. فعل ذلك مع (المعتزلة، والشيعة، والخوارج، والمرجئة، والجهمية، والقدرية) وما تفرع عن هذه الفرق الكبرى من فرق صغيرة تنسب إليها وتدين بآرائها.

أما الجزء الثانى من كتابه فقد خصصه للكلام عن (دقيق الكلام) العالم، تناول خلاله آراء الفرق المختلفة فى عالم الشهادة، فذكر آراءهم فى الزمان، المكان، الإنسان، الروح، الخلاء، الملاء ... الخ. وهكذا. وسار على نفس المنهج معظم الأئمة الكبار فى مدارس علم الكلام المختلفة، أمثال الباقلانى

والرازى والآمدى والإيجى من أعلام الأشاعرة، والقاضى عبد الجبار مؤرخ المعتزلة الكبير فى موسوعته الكلامية (المغنى).

ويلفت نظر الباحث أن تناول المتكلمين لمسائل (دقيق الكلام) لم يقصدوا به أن يكون هذا العالم وأنواعه ومفرداته وجزئياته موضوعًا للبحث العلمى، وأن تكون مفرداته موضوعًا للتجربة العلمية، وأن يكتشفوا قوانينها ليحسنوا توظيفها بقدر ما كانوا يوظفونه لصالح الاستدلال به على مسائل (جليل الكلام) كالاستدلال بحديثهم عن الجواهر والأعراض على حدوث العالم، واستدلالهم بنفس الدليل على وجود الله.

تجد هذا مبثوثًا فى مؤلفات علم الكلام على مستوى الفرق كلها معتزلة كانوا أو أشاعرة وماتريدية، فعل ذلك الباقلانى فى كتاب التمهيد، وابن حزم فى كتابه الفصل، والرازى فى المطالب العالية والمباحث الشرقية، وعضد الدين الإيجى فى العقيدة العضدية، وكذلك فعل القاضى عبد الجبار فى موسوعة المغنى الذى دون فيه آراء المعتزلة فى قسمى علم الكلام (دقيق الكلام، وجليل الكلام).

كانت مهمة علم الكلام الأساسية تنحصر فى الاستدلال على صحة المسائل الاعتقادية بالبراهين العقلية، فكان معظم اهتمامهم موجهًا إلى البحث النظرى فى مسائل العقيدة وفى دلائل هذه المسائل، وكان نصيب البحث فى (العالم) عندهم مرتبطًا بالقدر الذى يستدلون به على مسائل العقيدة، وكيف يأخذون المقدمات النظرية ليستنبطوا منها النتائج الصحيحة ليعضدوا بها الدليل النقلى من الكتاب والسنة، وكفاهم ذلك من البحث فى العالم، عالم الشهادة؛ لأن قضيتهم الكبرى هى الاستدلال على صحة العقائد الإسلامية بالبراهين العقلية كما سبق، ولم يكن من خطتهم أن يجعلوا العالم موضوعًا للبحث العلمى بقصد اكتشاف قوانينه، أو تعليل

ظواهره، أو الاهتمام بمفرداته وأنواعه ليكون كل نوع منه موضوعًا للبحث التجريبى بقصد الإفادة منه، وتسخيره لصالح الإنسان تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (لقمان: 20) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ (إبراهيم: 33) أو الإفادة منه بقصد تعميره، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: 61). ولم نجد فى ثنايا مؤلفات علم الكلام ما يشير إلى اهتمامهم بذلك النوع من البحث العلمى إلا نادرًا، وعلى قدر كبير من الاستحياء، وربما كان عذرهم فى العزوف عن الاشتغال بهذا اللون من المعرفة حرصهم الشديد على بذل الجهد فى الاستدلال على صحة العقائد مما شغلهم وشغل وقتهم عن هذا اللون من البحث فى العلوم الكونية، وربما كان من أسباب ذلك أيضًا أن المشتغلين بهذه العلوم الكونية كانوا موضع اتهام فى عقيدتهم من كثير من المسلمين، فكثيرًا ما نقرأ فى كتابات بعضهم ما يشير إلى ذلك، فكانوا يتهمون المشتغلين بالكيمياء وعلوم الطبيعة برقة الدين وعدم الاكتراث بشعائر الإسلام، مما جعل كثيرًا من المسلمين يزهدون فى التعامل معهم وينصرفون عنهم، بل ينصرفون أيضًا عن الاشتغال بهذه العلوم الكونية؛ ولذلك لم يظهر بين علماء الكلام من اشتغل بالعلم الكونى بحثًا وتأليفًا، وإنما وجدنا ذلك خارج دائرة المتكلمين عند العلماء الذين صرفوا اهتمامهم إلى هذا اللون من المعرفة بالكون وأسراره بقصد الكشف عن قوانين الله المودعة فيه، والتنبه إليها، وإلى أهمية الاشتغال بها، وجدنا ذلك عند الخوارزمى، وجابر بن حيان، وابن الهيثم والكندى، وعبد اللطيف البغدادى، وأبو زكريا الرازى، وابن النفيس، وفى مؤلفات ابن رشد الطبيب، وابن سينا الطبيب ... وغيرهم من كبار العلماء الذين تركوا لنا تراثًا هائلاً فى مجالات مختلفة من العلوم الكونية، كالطب عند الرازى، وابن سينا، وابن رشد، وابن النفيس، والجبر عند الخوارزمى، والبصريات والهندسة عند ابن الهيثم،

ورياضيات جابر بن حيان.

أما علم الكلام والمشتغلون بقضاياه فقد صرفوا اهتمامهم إلى مجال البحث فى الإلهيات وقضاياها، ففصلوا القول فيها وزادوها شرحًا وتشقيقًا للمعانى، وبعد القرن الرابع وجدنا علماء الكلام قد جردوا القول لمنازلة بعضهم البعض فى حوار، قد يشتد أحيانًا؛ ليصل إلى درجة الاتهام بالتفسيق أو التبديع، وزادوا فى ذلك مما جعل الحوار بينهم قد يخرج فى كثير من الأحيان عن تحقيق الغرض الأسمى لعلم الكلام، وهو الاستدلال على صحة العقائد إلى تحقيق غرض المتكلم نفسه الذى يسعى إلى تحقيقه وهو الانتصار على المخالف له فى الرأى بإبطال حجته وبيان تهافتها. وقد تجلى ذلك فى كثير من مؤلفات متأخرى المتكلمين؛ مما ترتب عليه ضياع الهدف الأساسى لوظيفة علم الكلام بين مجادلات المتكلمين بعضهم لبعض.

وبعد أن كانت مهمة العلم والعلماء المشتغلين هى محاورة أهل الملل الأخرى بتجلية وجه الحق لهم أصبحت مهمة علماء الكلام هو الانتصار على المخالفين منهم من أبناء ملتهم، وأخذت فكرة الانتصار للرأى والمذهب تطغى على الوظيفة الأساسية لهذا العلم الجليل الشأن. ومن يطالع ردود الأشاعرة على المعتزلة وردود متأخرى المعتزلة على الأشاعرة، بل من يطالع مؤلفات متأخرى هذه الفرق على المتقدمين منهم يدرك تمامًا كيف تحولت مهمة هذا العلم إلى لون من الجدل الذى لا يؤسس يقينًا ولا يزيد المؤمن إيمانًا، وقد تنبه إلى هذا الإمام الغزالى؛ وهو من أئمة الأشاعرة، ونبه إلى خطورة هذا التحول فى وظيفة هذا العلم من البحث عن الحقيقة لذاتها إلى الانتصار للرأى والدفاع عن المذهب، وهذا ما أخل بوظيفة علم الكلام وتحول به عن مساره الحقيقى إلى لون من الجدل الكلامى الذى أفقد هذا العلم الكثير من دوره فى الدفاع عن العقيدة وتجلية قضاياها.

المعتزلة:

لقد أسس المعتزلة منهجهم الكلامى على مفاهيم عقلية مأخوذة من قياس عالم الغيب على عالم الشهادة، وجعلوا ذلك أصلاً لهم فى الحديث عن الإلهيات والنبوات والوحى، وعلاقة العقل بالنقل، فما قبلته عقولهم من أخبار الوحى قبلوه، وما لم تقبله عقولهم تأولوه إلى ما يوافق عقولهم، وشرحوا أصول مذهبهم فى ضوء هذه القاعدة العامة.

وجعل المعتزلة أصول مذهبهم خمسة أصول هى: العدل، التوحيد، القول بالمنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إنفاذ الوعيد.

ولكى تسلم لهم هذه الأصول الخمسة عمدوا إلى النصوص المتعلقة بالغيبيات فتأولوها على ما يوافق مذهبهم فى قياس عالم الغيب على عالم الشهادة. فلكى يسلم لهم مذهبهم فى "العدل" أنكروا القضاء الأزلى، الذى عبر عنه القرآن بقوله: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ (يس: 12)، وأنكروا أن تكون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وقالوا: إنها مخلوقة للعبد على سبيل الاستقلال، وأن الشرور والمعاصى التى يضج بها هذا الكون ليست مرادة لله؛ لأنها قبائح، والله تعالى لا يريد القبائح؛ لأن إرادة القبيح قبيح، والله منزه عن ذلك.

والمعتزلة فى تفسيرهم للعدل الإلهى قاسوه على مفهوم العدل البشرى، فجعلوا حكمة الله قاصرة على مجرد الثواب والعقاب على أفعال العباد، وليس الأمر كذلك، فإن حكمة الله فى أفعال العباد خيرها وشرها تتسع دائرتها لتشمل النظام الكونى كله من خيره وشره، وما فيه صلاح أمره، وما يشتمل عليه ذلك النظام من وسائل تؤدى إلى غايات مقصودة وحكمة مطلوبة قد تعجز عقولنا عن إدراك وجه الحكمة فيها.

فتفسير أفعال العباد يجب ألا يكون قاصرًا على مجرد الثواب والعقاب بل يجب أن تكون النظرة إليه أكثر شمولاً واتساعًا.

وإذا كان المعتزلة قد ارتضوا هذا المذهب فى أفعال العباد فإن الجبرية ومال إليهم الأشاعرة قالوا بالجبر المطلق، وإن كان الأشاعرة قد أتوا بنظرية الكسب توفيقًا بين الرأيين إلا أن هذه النظرية ليست فى التحليل الأخير إلا تفسيرًا جديدًا لمذهب الجهم فى الجبر، وبين المعتزلة والجبرية كانت آيات أفعال العباد مجالاً لتأويل الفريقين، كل حسب مذهبه ورأيه فى الجبر والاختيار[1].

وإذا كان الخطب فى أفعال العباد قاصرًا على طرفى الجبر والاختيار فإنه قد بلغ مداه فى الآيات التى تتحدث عن الصفات الإلهية بين المعتزلة والأشاعرة، فالمعتزلة وقد سموا أنفسهم بأهل التوحيد سلكوا فى تفسير التوحيد مسلكًا غريبًا ومبتدعًا فى الإسلام، حيث قالوا بنفى صفات البارى تعالى سواء فى ذلك ما أسموه بصفات الذات أو صفات الأفعال، فأبو الهذيل العلاف ذهب إلى أن علم الله هو الله، ونفى أن يكون الله عالمًا بعلم حديث أو قديم[2].

وجميع المعتزلة ينكرون رؤية الله فى الآخرة، وعندهم أن من قال: إن الله يرى فى الآخرة بالأبصار على أى وجه فمشبه والمشبه عند أبى موسى المردار كافر[3]. ويذهب القاضى عبد الجبار فى المغنى إلى أن نفى الصفات هو السبيل الوحيد إلى القول بإفراد الله بالقدم[4]. والعلة المشتركة بين جميع المعتزلة فى نفى صفة الرؤية أنه لو كان مرئيًا لوجب أن يكون من أجناس المرئيات فى الشاهد[5].

(1) انظر نقد الأستاذ الدكتور محمود قاسم لمدارس علم الكلام فى مقدمته لمناهج الأدلة سنة 1964م.
(2) الانتصار للخياط ص108، 123.
(3) الانتصار ص68.
(4) انظر المغنى للقاضى عبد الجبار 341/4 ط الدار المصرية للتأليف والنشر سنة 1965م.
(5) المغنى 129/4.

ولقد لجأ المعتزلة فى تعليلهم لهذا المذهب إلى منطق غريب يدل على أنهم لم يفرقوا بين عالم الغيب وعالم الشهادة وبين ما يجب فى حق الله تعالى وما يجب فى حق الإنسان فقالوا:

1- إن الله لو وصف بصفة ما للزم أن يكون قبل هذه الصفة ناقصًا ومحتاجًا إلى من يكمله بهذه الصفة، وللزم افتقاره إليها وهو محال.

2- لو وصف بصفة ما للزم تبعًا لذلك أن تشاركه هذه الصفة فى معنى القدم، ولزم تعدد القدماء، فتكون هناك ذات قديمة وصفة قديمة، وهم يقولوا بقديم واحد، ونتج عن تصور المعتزلة لصفات الله على هذا النحو أن قالوا بنفيها عنه، حتى لا يلزم من وصفه بها محال، وهم جميعًا متفقون على مقالة النفى إلا أنهم يختلفون فى تحديد هذه الصفات، وتحديد العلاقة بينها وبين الذات الإلهية، فبينما يرى واصل بن عطاء القول بنفى جميع الصفات الإيجابية من علم وقدرة وإرادة، نرى بعض أتباعه يرجع الصفات إلى صفتين فقط كالعلم والقدرة، أو إلى صفة واحدة كالعالمية.

فأبو على الجبائى أرجع جميع الصفات إلى صفتى العلم والقدرة، وقال بأنهما صفتان ذاتيتان، أو هما اعتبار أن للذات القديمة، أما ابنه أبو هاشم فاعتبرهما حالين للذات الإلهية، بعد أن أرجع جميع الصفات إليهما، وأبو الحسين البصرى أرجع جميع الصفات إلى صفة واحدة أسماها العالمية، وذلك كما يقول الشهرستانى عن مذهب الفلاسفة فالله عالم بذاته، حى بذاته، قادر بذاته.

أما أبو الهذيل العلاف فقد أرجع جميع الصفات إلى صفة العلم والحياة والقدرة، واعتبر هذه الصفات وجوهًا للذات؛ لأنه لا يمكن أن تقوم بالذات صفة زائدة عليها من أى وجه، وأنها إما أن تكون عين الذات

أو غيرها، ولا يمكن أن تكون غيرها لما يلزم عليه من التعدد والكثرة فى القدماء، وبعد أن يسوى بين الذات وصفاتها يقول بأن هذه الصفات وجوه للذات، وهذا بعينه كما يقول الشهرستانى هو مذهب النصارى فى أقانيمهم[1]، وسار المعتزلة بمذهبهم فى النفى إلى أبعد نتائجه خطورة وأكثرهما ضررًا حين أعلن معمر المعتزلى: أن الله لا يعلم ذاته، ولا يعلم غيره؛ لأن هذا يؤدى إلى التعدد والكثرة[2].

وجعلوا إرادة الله للشيء معناها خلقه للشيء، وإرادته لفعل من أفعال عباده معناه أمره بهذه الشيء؛ لأنه لا يمكن أن تضاف الإرادة إلى الله على سبيل الحقيقة لما يلزم من ذلك الحاجة والافتقار من جانب المريد[3] ونفوا السمع والبصر والكلام؛ لأنها أعراض حادثة لا تقوم بالذات القديمة، وكان معنى سمعه: أنه عليم بالمسموعات، ومعنى بصره: أنه عليم بالمبصرات، ومعنى كلامه: أنه خالق له.

ومذهب المعتزلة فى مجموعه قد مر بمراحل تطورية فى قضية الصفات، بالنسبة إلى عدد هذه الصفات، وبالنسبة للعلاقة بينهما وبين الذات، فبينما يرى واصل القوال بنفى جميع الصفات نرى أتباعه يرجعونها إما إلى صفتين كما يقول الجبائى، أو إلى صفة واحدة كما يقول أبو الحسين البصرى، أو إلى ثلاث صفات كقول العلاف.

وبينما نرى أن هذه الصفات اعتبارات للذات عند الجبائى نرى ابنه أبا هاشم يجعلها أحوالاً للذات، فى حين أن العلاف يجعلها وجوهًا للذات، فهم لم يتفقوا فيما بينهم إلا على مقالة النفى فقط.

---

(1) انظر الملل والنحل 64/1 - 77، مقالات الأشعرى 198/1، ثم انظر المغنى 129/4، 341، الانتصار ص108، 123.

(2) الملل والنحل 47/1 - 48.

(3) السابق 37/1 - 38.

يقول الشهرستانى مؤرخًا لمقالة النفى عند المعتزلة: "... وكانت هذه المقالة فى بدئها غير نضيجة، وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر، وهو الاتفاق على استحالة وجود على إلهين قديمين أزليين. قال: ومن أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة وانتهى نظرهم فيها إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالمًا قادرًا ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان، أو هما اعتباران للذات القديمة كما قال الجبائى، أو حالان كما قال أبو هاشم ..."

أما أبو الحسين البصرى فقد ردهما إلى صفة واحدة هى صفة العالمية، وذلك عين مذهب الفلاسفة. فالصفات ليست معنى زائدًا وراء الذات، بل هما ذاته عينها، وترجع كلها إلى السلوب أو الإضافات[1]، وليس معنى ذلك أن المعتزلة ينكرون الصفات الإلهية، بمعنى أنهم يصفون الله بضد ما وصف به نفسه فى كتابه، فلم نقرأ عن أحد منهم أنه وصف الله تعالى بالجهل أو العجز أو الصمم، لكنهم فسروا هذه الصفات تفسيرًا أدى بهم إلى تعطيلها، تطبيقًا لمنهجهم فى قياس عالم الغيب على عالم الشهادة؛ ولهذا بدا رأيهم خروجًا عن السنة وشذوذًا عن الجماعة، وعرفوا فى دوائر الفكر الإسلامى بالمعطلة والنفاة.

لأن الجماعة الإسلامية تلقت الغيبيات، ومن أهمها الصفات الإلهية كما أخبر بها الرسول ﷺ والكتاب المبين بالرضا والقبول؛ لأنهم لم يتصوروا ذاتًا بلا صفات، إذ ما الذات بلا صفات إلا عدم محض لا وجود له، ثم ماذا يقال فى هذه الآيات المتكررة فى القرآن التى جاءت فيها الصفات فى أكثر من صورة، مرة فى صورة الفعل ماضيًا أو مضارعًا، ومرة فى صورة المصدر، ومرة فى صورة اسم فاعل، وصيغ المبالغة والمشتقات، فهو سبحانه عالم

(1) الملل والنحل 65/1 - 77.

الغيب والشهادة، وعليم بذات الصدور وعلام الغيوب، ويعلم ما تحمل كل أنثى، وهكذا فى معظم الصفات. ماذا يقال فى تلك الصفات؟ وماذا يقال عن تكررها وتعدّد مواردها وصورها فى كتاب الله؟ وموقف المعتزلة من هذه الصفات يتمثل فى نفيهم لها، إلا أنهم قد أنكروا الصفات الخبرية جميعها، من استوائه تعالى على عرشه وعلوه على خلقه، ونزوله إلى سماء الدنيا، ومجيئه يوم القيامة والملك صفًا صفًا، كما أنكروا رؤيته يوم القيامة، وذهبوا فى تأويل الآيات الخاصة بهذه الصفات كل مذهب، فعندهم أن الله لم يستو على عرشه، ولن يأتى يوم القيامة، ولن يراه المؤمنون أبدًا، وكذبوا الأحاديث الصحيحة الثابتة فى تلك الصفات.

لقد ركب المعتزلة متن اللجاج، فتعسفوا فى التأويل واضطربوا فى التخريج وحملوا آيات الكتاب العزيز ما لا يمكن أن تتحمله، لكى تسلم لهم مقالة النفى، والخطب يكون سهلاً لو أنهم صرحوا بمقالة النفى على أنها رأيهم الخاص، قد توصلوا إليه بناءً على اجتهادهم أنفسهم، إلا أنهم قد أعلنوا أن ذلك هو حقيقة الدين وأصوله، وأعلنوها باسم الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ ولما نظروا فى دين الله وكتابه وجدوا أنه فى جميع آيات الصفات على الإثبات قولاً واحدًا، فذهبوا إلى التأويل لينفوا به ما أثبته الله لنفسه، وحملوا الناس على اعتقاد مقالتهم قهرًا وبقوة السيف، كما حدث فى عصر المأمون. لقد استسلم المعتزلة فى موقفهم هذا إلى منطق مضطرب فى تصور الحقائق الغيبية، وفاتهم أن أكثر هذه الحقائق لا يسع العقل البشرى أمامها إلا التسليم والعجز.

الأشاعرة:

ولم يكن المعتزلة بدعًا فى ذلك، فالأشاعرة المتأخرون الذين نهضوا لرد آراء المعتزلة سرعان ما تحولوا إلى مقالاتهم بنفى الصفات الخبرية، وتأولوها على رأيهم، ويرجع السبب فى نفى هذه الصفات لدى علماء الكلام إلى

تصورهم لمعنى الكمال اللائق بذات الله وما يتفرع على تصور هذا الكمال من القول بالصفات نفيًا أو إثباتـًا.

والمعتزلة والأشاعرة لم يقصدوا من وراء مقالاتهم فى النفى والإثبات إلا تحقيق معنى الكمال لله الذى تصوروه فى حق الله تعالى، إلا أنهم جميعًا قد أخطأوا فى تصور هذا الكمال وتفسيرهم لمعناه[1]، إذ كان عليهم أن يفرقوا فى تصورهم لهذا الكمال بين حقيقتين مختلفتين تمام الاختلاف هما عالم الغيب وعالم الشهادة، بين حقيقة الذات الإلهية وبين حقيقة الإنسان، وبين ما ينبغى تصوره فى حق الله وتصوره فى حق الإنسان، فلا ينبغى أن نتخذ المقياس الذى نقيس به فى عالم الشهادة ونطبقه فى عالم الغيب.

وإذا كان الله أعلم بنفسه وبما يجب له من صفات الكمال، فما علينا فى ذلك إلا تقبل ما وصف نفسه به بدون تأويل لمعناها أو تحريف لألفاظها، وإذا كان الله قد وصف نفسه بصفات ووصف عباده بصفات فليس معنى هذا أن حقيقة الصفتين واحدة فيهما، بل العقل والمنطق يقرران أن كل صفة تتبع موصوفها سموًا وكمالاً ورفعة، وإذا كنا لا نعرف عن حقيقة الذات الإلهية إلا جهلنا بهذه الحقيقة، فلماء نحاول تفسير صفاته تعالى فى ضوء صفاتنا نحن وتصورنا لها؟

أليس فى ذلك مجانبة للصواب ومكابرة للعقل؟ وإذا كان الله قد أخبرنا عن الكمال الواجب اتصافه به فى كتابه، متمثلاً فى صفاته التى ارتضاها لنفسه فأيهما أكثر قبولاً لدى العقل؟ أن نقبل ما وصف الله نفسه

(1) انظر فى نقد مدارس علماء الكلام المقدمة العلمية التى كتبها أستاذى الدكتور محمود قاسم لكتاب مناهج الأدلة لابن رشد.

به مثبتًا كما ورد فى كتابه أم نتقبله منفيًا كما أراد المعتزلة أن يتصوروه؟ وهل المعتزلة كانوا فى ذلك أعلم بما يجب لله من الصفات منه بنفسه؟

لقد تابع المعتزلة فى ذلك الفلاسفة وأخذوا بمقالات الجهم بن صفوان فى النفى وجذبوا إلى صفوفهم متأخرى الأشاعرة والشيعة، وتأولوا جميع آيات الصفات إلى ما يؤدى إلى تعطيلها عما دلت عليه.

وقد خالف متأخرو الأشاعرة ما كان عليه أبو الحسن الأشعرى من إثباته لجميع الصفات كما وردت بلا تأويل ولا تحريف، لأن الإثبات عنده لا يؤدى إلى الكثرة أو تعدد القدماء.

يقول الأشعرى فى الإبانة: "قولنا الذى نقول به، وديانتنا التى ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا ﷺ وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به الإمام أحمد بن حنبل - نضَّر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون، ولمن خالف قوله مخالفون ... وجملة قولنا: إن نقر بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن الله استوى على عرشه كما قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (طه: 5) وأن له وجهًا كما قال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: 27)، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ (سورة ص:75)، وأن له عينًا بلا كيف كما قال: ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ (القمر: 14)، وأن من زعم أن أسماء الله غير الله كان ضالاً، وأن لله علمًا كما قال تعالى: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ (النساء: 166). ونثبت لله سمعًا وبصرًا، ولا ننفى ذلك كما نفته المعتزلة والجهمية، ونثبت أن لله قوة كما قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ

ﱡﭐ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﱠ (فصلت: 15) [1]، والأشعرى لم يفرق فى هذه الصفات بين الصفات الثبوتية وغيرها بل أثبت جميعها كما ورد بذلك القرآن ونص صراحة على أنه يقول بما كان يقول به ابن حنبل.

وفى رسالة الأشعرى إلى أهل الثغر[2] نجده يرد تأويلات المعتزلة: فليس استواؤه على العرش استيلاء كما قال أهل القدر؛ لأنه لو لم تكن له هذه الصفات لم يكن موصوفًا بها فى الحقيقة، وإنما يكون وصفه مجازًا وكذبًا، ألا ترى أن وصف الله عز وجل للجدار بأنه يريد أن ينقض، لما لم يكن له إرادة فى الحقيقة كان مجازًا، وذلك أن هذه الأوصاف مشتقة من أخص أسماء هذه الصفات ودلت عليها، فمتى لم توجد هذه الصفات لمن وصف بها كان وصفه تلبيسًا أو كذبًا.

هذا هو منهج الأشعرى فى "الإبانة"، و"رسالة أهل الثغر" لكنه لجأ فى اللمع إلى طريقة عقلية فى الاستدلال على أمور العقائد كما يبدو فيها قريبًا من منهج المعتزلة فى الصفات، فهو لم يحاول فى الإبانة ورسالة أهل الثغر أن يستدل على صفة ما بدليل عقلى أو منطقى، بل أثبت هذه الصفات بالدليل القرآنى؛ لأن الله قد ارتضاها لنفسه ووصف نفسه بها، أما فى اللمع فهو يقدم الدليل العقلى تلو الدليل ليثبت به هذه الصفة أو تلك[3].

وذلك يدعونا إلى القول بأن الأشعرى قد مر بمرحلتين فى موقفه من الصفات تختلف طبيعة إحداهما عن الأخرى، وبالتالى فإن ذلك يدعونا إلى القول بأن هناك صورتين مختلفتين لمنهجه فى الصفات: فهو فى الإبانة والرسالة سلفى وحنبلى يبدو مناهضًا للمعتزلة ومخالفًا لهم كل المخالفة، وفى

(1) الإبانة فى أصول الديانة للأشعرى ص8 - 10 ط المنيرية سنة 1929م.
(2) طبعت باسم: أصول أهل السنة والجماعة بتحقيق، د/ محمد السيد الجليند.
(3) راجع اللمع طبعة الدكتور حمودة غرابة سنة 1955م.

اللمع أخذ بمنهج الجدل العقلى فى منهجه فى إثبات الصفات، والأشعرى لم ينقض فى اللمع رأيًا أو قولاً ذهب إليه فى الكتابين الآخرين. ولكن اختلاف المنهج بين طبيعة اللمع وهذين الكتابين يدعونا إلى التساؤل: أى هذه الكتب يمثل مذهب الأشعرى تمثيلاً صحيحًا؟ مع أن هذه الكتب الثلاثة تمثل ردود الأشعرى على المعتزلة؛ لأنها كلها تثبت الصفات الإلهية لكن الخلاف يكمن فقط فى المنهج.

نحن نعلم أن الأشعرى نشأ فى أحضان أبى على الجبائى الذى تزوج بوالدة الأشعرى بعد وفاة أبيه، وقد ربط بعض المؤرخين بين هذه النشأة والقول بأن الأشعرى ظل معتزليًا أربعين سنة من عمره، ثم حدث خلاف بينه وبين الجبائى، فترك الاعتزال، ونهض ذابًا عن منهج السلف وطريقة أهل الحديث، مفندًا آراء المعتزلة ومبطلاً أدلتهم، فالمتوقع أن يكون الأشعرى فى هذه الفترة من حياته الفكرية التى ترك فيها مذهب الاعتزال، وجرد نفسه للدفاع عن طريقة أهل الحديث قد وضع كتاب "الإبانة" وكتاب "رسالة أهل الثغر" ليبين للناس أن هذا هو طريق الكتاب والسنة، فيكون كتاب "الإبانة" يمثل رد فعل لمناهضة الأشعرى مذهب المعتزلة، وثورته عليهم فيكون من نتاج تلك الفترة التالية لترك مذهب المعتزلة مباشرة.

ومما يؤيد ذلك عند أصحاب هذا الرأى ما يقوله ابن خلكان فى ترجمة الأشعرى: "أن الأشعرى قد صعد يوم الجمعة على كرسيه بالجامع، ونادى بأعلى صوته من عرفنى فقد عرفنى، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أنا فاعلها، وأنا تائب من كل ذلك، مقلع معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم، إنما تغيبت عنكم هذه الفترة لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ولم يترجح عندى شيء، فاستهديت الله تعالى فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته كتبى هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد، كما

انخلعت من ثوبى هذا".

يقول ابن خلكان: "وانخلع من ثوب كان عليه، ودفع إلى الناس ما كتبه على طريقة الفقهاء والمحدثين"(1).

فإذا صحت هذه الرواية يجوز لنا القول: "بأن الإبانة من نتاج هذه الفترة التالية لثورته على المعتزلة؛ لأنه الكتاب الذى وضعه على طريقة أهل الحديث، فيكون أسبق من كتاب "اللمع" الذى يمثل فترة متأخرة من حياة الأشعرى، ولا يجوز القول بأنه من نتاج الفترة التى عاشها على مذهب الاعتزال؛ لأن الكتاب وضع لتفنيد آراء المعتزلة.

فكتاب اللمع يمثل مرحلة تطورية فى مذهب الأشعرى نفسه نحو منهج المعتزلة، ولعل هذا يفسر لنا التطور الذى طرأ على مذهب الأشاعرة فى مجموعه، والذى نلحظه لدى متأخرى الأشاعرة، من أمثال: الجوينى، والغزالى، والرازى، والآمدى، وأبو بكر بن العربى، وابن فورك، فهؤلاء جميعًا أقرب إلى منهج المعتزلة ومذهبهم منهم إلى مذهب الأشعرى ومنهجه، فهم لم يقفوا عند الأخذ بما جاء فى الكتاب والسنة بدون تأويل ، بل مالوا إلى مذهب الاعتزال فى الوقت الذى اعتبروا أنفسهم أنهم أهل السنة، والتطور الذى طرأ على مذهب الأشعرى نفسه نستطيع أن نلحظه لدى معظم متأخرى الأشاعرة.

وهذه تعتبر ظاهرة عامة فى المذهب الأشعرى كله، فإن معظمهم ينتهى به الأمر إلى الحيرة والتردد بين الرأى ونقيضه، فالجوينى فى الإرشاد والشامل قد ذهب إلى التأويل فى جميع آيات الصفات وغيرها، أما فى العقيدة النظامية فقد ترك ما ذهب إليه فى الكتابين السابقين، وصرح بخلاف ذلك

(1) ابن خلكان 446/2 ـ 447 ط السعادة بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد سنة 1949، الفهرست لابن النديم: ص181 من سلسلة روائع التراث العربى ط لبنان، وقد أورد هذه القصة الدكتور عرفان عبد الحميد فى كتابه "دراسات فى الفرق والعقائد" ص136 مع بعض الزيادات هامش رقم 46 ط بغداد.

إذ يقول: "والذى نرتضيه رأيًا، وندين به عقدًا اتباع سلف الأمة، فالأولى الاتباع وترك الابتداع" لأن سلف الأمة قد ذهبوا إلى الانفكاك عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها والدليل السمعى القاطع فى ذلك: أن إجماع الأمة حجة نتبعه وهو مستند معظم الشريعة ... ولو كان تأويل هذه الآى مسوغًا أو محتومًا لأوشك أن يكون اهتمام السلف به فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذ انصرم عصر الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك قاطعًا بأنه الوجه المتبع بحق، فعلى ذى الدين أن يعتقد تنزيه الرب ... ولا يخوض فى تأويل المشكلات"!![1].

وقال فى آخر حياته: "الويل للجوينى إن لم أمت على دين العجائز".

وأيضًا نجد الغزالى مع فرط ذكائه، وسعة علمه ينتهى فى هذه المسائل إلى الحيرة والوقف ويحيل فى آخره أمره على طريقة أهل الكشف.

والرازى وهو من أكثر الأشاعرة إيغالاً فى العقليات ينتهى فى آخر أمره إلى الإقلاع عن مذاهب المتكلمين عمومًا ويلجأ إلى دليل السمع حيث يقول: "ومن الذى وصل إلى هذا الباب، أو ذاق من ذلك الشراب، ثم قال:

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفى عليلاً

(1) العقيدة النظامية للجوينى: رواية أبى بكر بن العربى – بتحقيق محمد زاهد الكوثرى 25/2 ط الأنوار.

ولا تروى غليلاً، ورأيت أُقرب الطرق طريقة القرآن. اقرأ فى الإثبات قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر: 10)، واقرأ فى النفى قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى: 11)، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ (طه: 110)، ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ (مريم: 65) ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى"[1].

والشهرستانى فى أول كتابه "نهاية الإقدام فى علم الكلام" يعبر عن حيرته بقوله:

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها
وحيرت طرفى بين تلك المعاهد
فلم أر إلا واضعًا كف حائر
على ذقن أو قارعًا سن نادم[2]

ومعلوم أن سبب هذه الحيرة وذلك الاضطراب أن قضايا الغيب لا يؤخذ فيها بقياس عالم الغيب على عالم الشهادة كما يفعل المتكلمون، وإن قضايا الإلوهية يتلقاها العقل من الوحى ويؤمن بها على ما أراده الله منها، وإن مذهب السلف يثبت بنفس منهج القرآن الذى سلكه فى إثبات الصفات، وليس بمنهج المتكلمين، وهؤلاء الأشاعرة يتكلمون بمذهب السلف وينهجون فى إثباته منهج المتكلمين، وفرق كبير بين منهج القرآن ومنهج المتكلمين فى الإلهيات.

ونجد عند الأشاعرة منطقًا آخر غير مفهوم فى تفسيرهم للعلاقة بين

(1) العقل والنقل 93/1. وكثيرًا ما يذكر ابن تيمية هذا النص عن الرازى ويقول إنه يتمثل به فى كتاب "أقسام الذات" وهذا الكتاب غير موجود بمكتبات القاهرة وذكر الزركشى فى رسالته عن الرازى أن هذا الكتاب مخطوط بالهند. انظر رسالة الزركانى مخطوطة بكلية دار العلوم.
(2) انظر مقدمة نهاية الإقدام: ص3 – تحقيق: الفريد جيوم – سنة 1934م.

الذات والصفات، فهم يقولون: إن الصفات ليست عين الذات كما أنها ليست غير الذات، وبعبارتهم فليست هى هو ولا هى غيره، لأنها لو كانت هى هو لكن ذلك إنكارا لوجود الصفات، والقول بنفيها، وذلك مذهب المعتزلة، ولو كانت غيره لأصبحت ذواتًا مستقلة قائمة بنفسها، وذلك يوجب التعدد والكثرة[1]، وهذا المنطق غير المفهوم جعل الإمام الغزالى يرد عليهم فى "المقصد الأسنى" قائلاً: "إذا لم تكن هى هو، ولا هى غيره، فماذا تكون إذن؟ ولا شك أن الذى ألجأهم إلى ذلك المنطق الغريب هو إقحام العقل بالبحث فى مجال الغيبيات وترددهم بين منهج المعتزلة ومنهج السلف.

ثم فرقوا بين نوعين من الصفات، فأثبتوا الصفات العقلية الذاتية، ونفوا صفات الأفعال مثل صفة الخلق والرزق، وقالوا: "إن كل صفة اشتقت من فعله تعالى كالخالق والرازق والمحيى والمميت لم يكن الله موصوفًا بها أزلاً"[2].

ولو سألنا الأشاعرة ما الفرق بين ما أثبتوه وما نفوه؟ لم نجد لذلك جوابًا مقنعًا، لأن العلة التى تأولوا من أجلها الصفة مشتركة بين ما أثبتوه وما نفوه.

والذى نريده هنا: أن المتكلمين قد أقحموا العقل فى مجال الغيبيات، وزادوا فى تفصيلات القول فيه دون سند؛ لدرجة أنهم رأوا أن يفسروا الصفات الإلهية بكيفية خاصة يتصورونها هم بعقولهم، وكل فريق منهم يضع تصوره الخاص بكيفية هذه الصفة أو تلك، وحاولوا شرح علاقة الصفة بالذات الإلهية على نحو ما تصورته عقولهم، فهل الصفة عين الذات أو هى غير الذات؟ هل الصفة حال للذات؟ هل هى قديمة قدم الذات

(1) نهاية الإقدام: ص200 - 201.

(2) الفرق بين الفرق: ص338.

أو حادثة بعد أن لم تكن؟ وكل هذه الأسئلة ليس عند العقل جواب عنها.. لأن العقل لا يعلم عن الذات الإلهية كيف هى حتى يتصور كيفية صفاتها. ولذلك كان حديثهم عن هذه القضية مثار جدل عقيم بين نافٍ للصفة ومتأول لها، وهم فى حقيقة الأمر مشتركون جميعًا فى صفة التعطيل، وليس المعتزلة وحدهم بدعًا فى ذلك؛ لأنهم إذا كانوا ينفون الصفات الذاتية فإن الأشاعرة قد نفوا صفات الأفعال، وجعلوا الذات الإلهية معطلة عن الفعل أزلاً، فليس الله عندهم خالقًا ولا رازقًا فى الأزل، وهم جميعًا مشتركون فى تأويل صفات الأفعال، وكذا الصفات الخبرية كالمجيء، والإتيان، واليد، والقبضة، والعلو، والاستواء، والنزول، فهذه كلها أخبار مصروفة عن ظاهرها عندهم، ومعطلة عن الدلالة على ما دلت عليه على خلاف بينهم فى تفصيل ذلك، ولم نجد عند الجميع علة فى صرف الآية عن ظاهرها إلا ونفس العلة موجودة فى المعنى الذى تؤولت إليه الآية سواء فى ذلك المعتزلة والأشاعرة.

ولما كان الكتاب والسنة هما قطب الرحى فى كل هذه الخلافات، فقد حاول كل من هؤلاء وأولئك أن يستدل على رأيه ـ بطريق أو بآخر ـ بنص من الكتاب أو السنة بتأويله على رأيه، ولهذا فقد اضطروا جميعًا إلى تجاذب النصوص القرآنية بين الرأى ونقيضه، فى النفى والإثبات، والقبول والرد، وكان التأويل هو المسلك الوحيد للمتكلمين إلى كل هذه الآراء المتناقضة فى كل قضايا الغيب، فتجد الواحد منهم يثبت هنا ما نفاه الآخر، وينفى هنا ما أثبته الآخر، ولو أنهم صرفوا جهودهم هذه إلى إرشاد المسلمين للاهتمام بعالم الشهادة، وجعلوه موضوعًا للبحث العلمى كما أرشدهم القرآن إلى ذلك ربما كان حال العالم الإسلامى غير ذلك.

نماذج من تفسيرات الفلاسفة لعالم الغيب:

قام فلاسفة الإسلام بمحاولة التوفيق بين الدين وما نقل إليهم من آراء أفلاطون وأرسطو وغيرهما فى الإلهيات، إبان حركة الترجمة فى العصر العباسى، وأوقف كل من الفارابى وابن سينا حياته على دراسة آراء هذين الحكيمين بالشرح والتوضيح أو بالجمع والتوفيق.

ولقد أولع هؤلاء الفلاسفة بما نقل إليهم من آراء أفلاطون وأرسطو وتصوراته العقلية، عن ذات المبدع لهذا الكون، وغلوا فيها، وربما ذهبوا إلى القول بعصمتها، إذ "لولا ما أنقذ الله به أهل العقول والأذهان بهذين الحكيمين أفلاطون وأرسطو ومن سلك سبيلهما .. لكان الناس فى حيرة ولبس"(1).

ولقد حملت هذه الآراء اليونانية تصورات عقلية عن المبدع الأول، كان لابد لها أن تختلف مع الحقائق الدينية الثابتة فى نفوس المؤمنين، تبعًا لاختلاف المصدرين؛ لأن مصدر الأولى هو العقل البشرى، الذى مهما بلغ فى رقيه فهو قاصر عن إدراك الحقائق المغيبة عنه، وكان مصدر الثانية هو الله نفسه الذى تحدث بهذه الحقائق عن نفسه، وأوحى بها إلى عباده على لسان رسله أن يؤمنوا بها.

ولقد اصطلح الفلاسفة على تسمية المبدع لهذا الكون باصطلاحات كواجب الوجود، أو العلة الأولى، أو السبب الأول، ثم تصوروه بمجموعة من التصورات العقلية المحضة التى عبر عنها الفارابى فى كتاب "فصوص الحكم" بمجموعة من الفصوص. فقال: فص: "واجب الوجود بالذات لا ينقسم بالفصول، فلو كان له فصل لكان الفصل مقومًا له، وكان داخلاً فى ماهيته وهو محال.

فص: وجوب الوجود، لا ينقسم بالحمل على كثيرين مختلفين بالعدد،

(1) الجمع بين رأى الحكيمين للفارابى: ص29 - 30 ط السعادة سنة 1907م.

وإلا لكان معلولاً له.

فص: وجوب الوجود لا ينقسم بأجزاء القوام مقداريًا كان أو معنويًا، وإلا لكان كل جزء من أجزائه إما واجب الوجود، فيتكثر واجب الوجود. وإما غير واجب الوجود فهذا أقدم بالذات من الجملة.

فص: واجب الوجود بذاته لا جنس له، ولا فصل له، ولا نوع له، ولا ند له، واجب الوجود لا مقوم له، ولا موضوع ولا عوارض له، ولا ليس له"(1).

وما نجده عند ابن سينا فى "الإشارات" لا يخرج عما قاله الفارابى فى "الفصوص"، فالأول لا جنس له، ولا فصل له، ولا حد له، ولا يشار إليه إلا بصريح العرفان العقلى(2).

ولو التأم واجب الوجود من شيئين أو أشياء تجتمع لوجب بها، ولكان الواحد منها قبل واجب الوجود مقومًا له، فواجب الوجود لا ينقسم فى المعنى ولا فى الكم"(3).

ويتضح من تصور الفلاسفة لواجب الوجود أنهم يجعلونه ذاتًا مجردة من كل صفة تجعل له حقيقة ووجودًا خارجًا، حتى يصير الاعتقاد به أنه ذات واحدة لا يكون لها شريك فى النوع، أو يكون لها جزء وجودى كمى أو معنوى، ولا يمكن أن تكون خارجة عن العالم ولا داخلة، ولا بحيث تصح الإشارة أنها هناك(4).

وإذا كان الفلاسفة يتصورون ذات الله على هذا النحو التجريدى، كما

---

(1) فصوص الحكم للفارابى: ص132 ط الخانجى سنة 1907م (ضمن مجموعة رسائل الفارابى).

(2) الإشارات لابن سينا 53/3 ط دار المعارف سنة 1968، النجاة لابن سينا ص374 – ط الكردى سنة 1331هـ، عيون الحكمة لابن سينا: نشره حلمى أولكن: ص51 ط استانبول سنة 1953م.

(3) الإشارات 44/3.

(4) رسالة أضحوية فى أمر المعاد لابن سينا: ص44 – ط دار الفكر العربى سنة 1949م.

تصوره أرسطو، فإن الله قد وصف نفسه فى كتابه الكريم بصفات تجعله حقيقة مقررة وثابتة فى نفوس المؤمنين: فهو حى، قيوم، خالق، رازق، محيى ومميت، سميع، بصير، ومع كل شيء فى كونه، ويجيء يوم القيامة، واستوى على عرشه، وقد جبلت النفوس على أن تتوجه إليه فى الدعاء، وهذه كلها معان تلقاها المؤمن عن الرسول فآمن بها، واستقرت فطرته عليها، وهى كلها صفاتٌ تجعل لذات الإله وجودًا واقعيًا وحقيقيًا خارجًا عن التصور الذهنى، ومن هذا الوجود الخارجى ومن خلال إحساس المؤمن به فى نفسه يستمد منه الرغبة فى لقائه أو الخوف منه.

فليس وجوده مجرد فكرة ذهنية طارئة، لا مدلول لها خارج التصور الذهنى.

ولهذا فلقد وجد الفلاسفة أنفسهم أمام نمطين مختلفين من التفكير حول ذات الإله لابد لهم من التوفيق بينهما:

النمط الأول: ويتمثل فى الفلسفة اليونانية، وقد صورت واجب الوجود بما يجعله مجرد فكرة ذهنية عابرة، أو تصورًا عقليًا فقط.

النمط الثانى: ويتمثل فى الحقائق الدينية التى خاطب الله بها عباده، وفيها يكون وجود الله حقيقة واقعية مستقرة فى الخارج وثابتة فى نفوس المؤمنين.

ولقد تقبل هؤلاء الفلاسفة آراء اليونان على أنها قضايا لا تحتمل النقد أو الرفض، بل تقبلوها وقدسوها على أنها مولدة الديانة، وقدَّسوها على أنها مستفادة من أرباب الملة على سبيل التنبيه(1)، ولولا أن الله قد أنقذ العالم بها لبقى الناس فى حيرة ولبس.

والسجستانى أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام (ت380هـ) يصور

(1) تسع رسائل لابن سينا فى الحكم والطبيعيات ص30 الهند سنة 1354هـ

لنا قداسة الفكر اليونانى لدى الفلاسفة فيما نقله عنه أبو حيان التوحيدى فى المقايسات، فيقول: "فالأنبياء والأصفياء ومن دونهم يدندون حول خلوص النفس فى العاجلة وخلاصها فى الآجلة، والقول وإن اشتبه، والإشارة وإن غمضت، فالمراد بيّن، والمطلوب متيقن، وهل الحكمة إلا مولدة الديانة؟ وهل الديانة إلا متممة الحكمة"[1].

فنرى من ذلك أن الفلسفة اليونانية قد احتلت مكانة القداسة لدى الفارابى وابن سيناء والسجستانى، فهى عند الفارابى سبيل الهدى والرشاد، وعند ابن سينا متلقاة من أرباب الملة الإلهية، وعند السجستانى مولدة الديانة، واحتل المصطلح اليونانى مكان المصطلح القرآنى.

1- فالوحى عند ابن سينا عبارة عن: "إفاضة العقل الكلى على نفس النبى الذى ينتهى إليه التفاضل فى الصور المادية، وفيضان العلوم منه على لوح قلب النبى بواسطة العقل الفعال، والملك المقرب: هو كلامه[2].

2- والرسالة هى: "ما قبل من الأمور المفاضة على نفس النبى المسماة وحيًا، على أى عبارة استصوبت لصلاح عالمى البقاء والفساد علمًا وسياسة.

3- والرسول هو: "المبلغ ما استفاده من الإفاضة المسماة وحيًا على عبارات استصوبت؛ ليحصل بآرائه صلاح العالم الحسى بالسياسة والعالم العقلى بالعلم"[3].

4- فابن سينا يصرح: بأن عبارات الوحى: هى ألفاظ استصوبها الرسول للتعبير بها عما أوحى إليه، وبعبارة أكثر إيضاحًا: أن الرسول قد تلقى بالفيض عن العقل الفعال معانى عبر عنها بألفاظ من عنده، وهذا

(1) المقايسات لأبى حيان: ص290 ط الرحمانى سنة 1923م.

(2) رسالة ابن سينا فى النبوات: ص85 ضمن مجموعة ط الجوانب سنة 1928م.

(3) الرسالة العرشية لابن سينا: ص8-9 – ط حيدر آباد سنة 1354هـ - ضمن مجموعة.

يناقض تمامًا ما صرح به القرآن وما عليه المسلمون من أنه صلى الله عليه سلم ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ (النجم: 3) ويخالف ما تحدث به القرآن عن نفسه حين قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: 4).

وبعد أن صرح القرآن سلفًا بنفى ما قاله ابن سينا فلا مجال هناك إذن للقول بأن ألفاظ الوحى قد استصوبها الرسول ليعبر بها عما لديه من المعانى التى فاضت عليه من العقل الفعال.

وهم يشترطون على الرسول أن يكون عارفًا لغة الفلاسفة واصطلاحاتهم ومرموزاتهم(1) فلابد أن يتصور ويرى موجودات عقلية مجرة عن المادة. كل واحد منها قائم بنفسه وهم الملائكة، وتقدم محاولة الفلاسفة فى التوفيق بين الوحى والعقل على أساس لغة الأنبياء عن الغيب لا تعبر عن الحقيقة، وإنما هى رموز وخيالات على سبيل التمثيل للجمهور بما يفهمون، تقريبًا للعقول، وترويضًا للأفهام. ويشير ابن سينا إلى مصدر هذه الفكرة قائلاً: كما ذكر أفلاطون فى كتاب النواميس بأن من لم يقف على معانى ورموز الرسل لم ينل الملكوت الإلهى(2).

هذه إشارات موجزة إلى موقف المتكلمين والفلاسفة من قضايا الغيب _ خاصة الإلهيات _ لنتعرف منها على الفارق الكبير بين منهج القرآن فى الحديث عن الغيبيات وموقف المتكلمين والفلاسفة. وكيف كان موقف القرآن يميل إلى الإجمال والبعد عن التفصيل فى حديثه عن الغيب، وعلى العكس من ذلك كان موقف المتكلمين.

وكيف اهتم القرآن بالحديث عن عالم الشهادة وفصّل القول فيه، وكيف دعا المسلم إلى البحث فيه والتأمل فى آيات الله وأسراره خلال مفردات الكون؟

(1) رسالة إخوان الصفا: 124/4 – ط دار صادر ببيروت سنة 1957م.

(2) تسع رسائل فى الحكمة والطبعيات، ص89.

وكيف حذرنا القرآن من الخوض فى الغيبيات بمفاهيم العقل البشرى بينما جعلها المتكلمون موضوع البحث والتفصيل والتفريعات والجدل مما أورث المفكرين خلافًا وتعصبًا مازلنا نجنى ثمرته إلى الآن.

كتب للمؤلف

أولاً: سلسلة تصحيح المفاهيم :

1) الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية.
2) منهج السلف بين العقل والتقليد.
3) الأصولية والحوار مع الآخر.
4) فلسفة التنوير بين المشروع الإسلامى والتغريبى.
5) تأملات حول منهج القرآن فى تأسيس اليقين.
6) الوحى والإنسان قراءة معرفية.
7) خلل فى مسيرة الأمة.
8) الصراع العربى الإسرائيلى..قراءة فى الجذور التوراتية.

ثانيًا: مؤلفات:

1) الإمام ابن تيمية وقضية التأويل.
2) قضية الخير والشر فى الفكر الإسلامى.
3) من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة.
4) نظرية المنطق بين فلاسفة الإسلام واليونان.
5) قضية التوحيد بين الدين والفلسفة.
6) دراسة أساسية لمشروع قانون إسلامى لحماية البيئة بتكليف من الاتحاد العالمى لحماية البيئة (طبع بالإنجليزية والفرنسية) بالاشتراك مع آخرين.
7) الفلسفة الخلقية لدى مفكرى الإسلام.
8) فى المنطق ومناهج البحث بالاشتراك.
9) قضية الإلوهية بين الدين والفلسفة.

10)أصالة ابن رشد وأثره فى الفكر اليهودى والمسيحى. بحث.

11)عقائد وتيارات فكرية معاصرة بالاشتراك مع آخرين.

12)من قضايا الفكر الإسلامى فى مواجهة التغريب واستلاب الهوية.

13)الغيب والشهادة كما تحدث القرآن الكريم.

ثالثـًا: تحقيق:

1) دقائق التفسير الجامع لتفسير شيخ الإسلام ابن تيمية – فى ستة أجزاء.

2) مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية – الأشرار – ليحيى بن حمزة العلوى.

3) كتاب التوحيد لابن تيمية.

4) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية.

5) عيوب النفس ودواؤها للسلمى.

6) تقريب درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية.

7) أصول أهل السنة والجماعة لأبى الحسن الأشعرى.

8) الإشارة إلى مذهب أهل الحق للشيرازى.

9) الانتصار فى ذكر أحوال قامع المبتدعين وآخر المجتهدين لشيخ الإسلام ابن تيمية.

فهـــرس

الموضـــوع	الصفحـة
تقديم	7
الإنسان وعالم الشهادة قراءة توحيدية	11
إعادة القراءة	17
تراثنا الفلسفى بين قراءتين	20
بين آيات الله القولية وآياته الفعلية	27
كتاب الله المنظور	31
ضرورة الجمع بين القراءتين	34
فروض الكفايات	39
حديث القرآن عن عالم الشهادة	53
• عالم الخلق	54
• السماء والأرض	62
• فى الأرض آيات	69
• حديث القرآن عن الإنسان	73
• حديث القرآن عن الحشرات والحيوان	87
حديث القرآن عن عالم الغيـب	91
الغيب المطلق	95
عالم الغيب	97
موقف السلف من عالم الغيب	107

الموضوع	الصفحة

العلو 111
عالم الغيب فى علم الكلام 123
• تمهيد 123
• المعتزلة 128
• الأشاعرة 133
• نماذج من تفسيرات الفلاسفة لعالم الغيب 143
كتب للمؤلف 149
الفهرس 151

تنفيذ الطباعة والتجهيزات الطباعية
الدار المصرية السعودية
للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة
لصاحبها العقيد شيرين ثابت
16 أ عمارات العبور - شارع صلاح سالم - مدينة نصر
تليفاكس 02/22621365 - تليفون 02/24025777
محمول 0123140315
E-mail: elmsria.alsodia@hotmail.co.uk